الفصل الرابع

الغـزو الـرؤيـوى

« لا علم لى بما يحدث فى سائر بقاع العالم، لكن العالم فى هذا البلد الذى نعيش فيه لم يعد يعلن نهايته ولكنه يثبتها »

البابا جريجورى الكبير (٥٤٠ ـ ٦٠٤م)

عندما عزم چيروم على ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية فى القرن الرابع اضطر لمواجهة كافة تناقضات سفر الرؤيا. فالحكاية التى يحكيها يوحنا كما رأينا يصعب تصديقها وفهمها. فالأسماء والألوان والصور التى يستحضرها يوحنا مشحونة بالمعانى الخفية، أما ما يفترض أن تدل عليه فمسألة حدس فى معظمها. وفى بعض المواضع «يتبِّل» يوحنا نصه بما لا يمكن وصفه إلا بأنه استخفاف بالعقل. ويفسر يوحنا من حين لآخر بعض الرموز ويحل قليلا من الألغاز، ولكن حتى حين يفعل فإن الأجوبة تثير مزيدًا من التساؤلات. وخلص چيروم بعد أن أصيب بالإحباط إلى أن «سفر الرؤيا به من الألغاز قدر ما به من ألفاظ»[١].

وبعض من أشهر الألغاز ـ كهوية الإمبراطور الرومانى الذى شفر اسمه فى الرقم الشيطانى ٦٦٦ ـ مخفية فى مشهد واضح فى النص. وهناك ألغاز أخرى نجدها فى تساؤلات تطرح نفسها: فيوحنا يؤكد أن العالم سينتهى قريبًا ولكنه لا يبوح بتوقيت محدد. وبعض الألغاز منسوجة بعمق وتعقيد فى النسيج اللاهوتى للنص نفسه. فأين فى سفر الرؤيا مثلاً نجد المعلم الحانى الرئيف كصورة يسوع فى بعض من أسمى فقرات الأناجيل؟ فيقول يسوع فى إنجيل متى: «أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ»[٢]. أما مؤلف سفر الرؤيا فلا يعرف إلا يسوع العنيف المنتقم «الْمُتَسَرْبِلِ بِثَوْبٍ مَغْمُوسٍ بِدَمٍ» المسلح بسيف ذى حدين ويمتطى صهوة جواد حرب ويقود «الأَجْنَادَ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ» فى حرب إبادة على أعدائه[٣].

يقول يوحنا الذى يبدو أنه يجد لذة فى وصف المذبحة التى سيخلفها الملك المحارب السماوى فى ساحة المعركة بعد الحرب بين الرب والشيطان: «وَمِنْ فَمِهِ يَخْرُجُ سَيْفٌ مَاضٍ لِكَى يَضْرِبَ بِهِ الأُمَمَ وَهُوَ سَيَرْعَاهُمْ بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ»، وينادى ملك فى النسور وهى تحلق فى وسط السماء قائلاً: «هَلُمَّ اجْتَمِعِى إِلَى عَشَاءِ الإِلَهِ الْعَظِيمِ، لِكَى تَأْكُلِى لُحُومَ مُلُوكٍ وَلُحُومَ قُوَّادٍ وَلُحُومَ أَقْوِيَاءَ وَلُحُومَ خَيْلٍ وَالْجَالِسِينَ عَلَيْهَا وَلُحُومَ الْكُلِّ حُرًّا وَعَبْدًا صَغِيرًا وَكَبِيرًا»[٤].

ولعل التناقض الأكبر بين النظريات اللاهوتية المتنافسة لسفر الرؤيا والأناجيل نجده فى الفقرات التى تصف آخر الزمان. فطبقًا لرؤيا يوم الحساب بإحدى فقرات «سفر الرؤيا الصغير» كما وردت بإنجيل متى، فإن يسوع سيرحب فى مملكة السماء بكل من أعطى طعامًا لفقير وماء لظمآن وثوبًا لعريان ومأوى لشريد وعاد مريضًا وزار سجينًا. ويعلن يسوع فيما يوصف بأنه أسمى فقرة فى كافة الكتابات المقدسة المسيحية وأشدها ثورية فى الوقت نفسه: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِى هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِى فَعَلْتُمْ»[٥].

أما يوحنا فليس لديه شىء مشجع أو سامٍ يقوله للخيرين ممن يتمنون الخلاص عبر فعل الخيرات على الأرض. فأول أرواح تجد الخلاص ـ أو «تُختم» بتعبير يوحنا ـ فى سفر الرؤيا هم المائة والأربعة والأربعون ألفًا ممن لا فضل لهم إلا أنهم «لَمْ يَتَنَجَّسُوا مَعَ النِّسَاءِ»[٦]. وحين يحل البعث الأول والحساب لا يُبعث من رقدة الموت ليحكم مع يسوع فى الألفية التى سيَقضى ملكًا على الأرض إلا القديسون والشهداء ممن أبوا أن يعبدوا «الوحش» أو أن يضعوا وسمه على أيديهم وجباههم ومن قُطعت رقابهم لاعترافهم بالإيمان بالمسيح.

وبعد فكاك الشيطان من الحفرة التى لا قرار لها وهزيمته للأبد، يُبعث بقية الموتى ويحاسبون «بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ»[٧]. ولا يحدد يوحنا أى سلوك فى الحياة يفضى إلى الخلاص بعد الموت، إلا أن المعنى الضمنى الذى يبدو قويًّا فى سفر الرؤيا هو أن الإيمان يفضُل العمل الصالح، وأن «القديسين» وحدهم من سيعُتقون من العقاب الأبدى.

وكل من عداهم بما فى ذلك «الْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ وَالسَّحَرَةُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَان» ومعهم «الْخَائِفُونَ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسُونَ» سيبقون للأبد «فِى الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ الَّذِى هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِى»(٨).

ومما يزعج قراء الكتابات المقدسة المسيحية القدامى منهم والمحدثين على السواء ذلك التناقض بين هاتين الطريقتين لتصور نهاية العالم. فمن الباحثين المحدثين، مثلاً، من يعتبر سفر الرؤيا «شبه مسيحى»؛ لأن يوحنا مهووس بالثأر والانتقام ولا يهتم كثيرًا بما يدعو إليه يسوع فى الأناجيل من رحمة وحنو(٩). والموقف المسيحى المعادى لسفر الرؤيا يلخصه مارتن لوثر فى مرحلة من حياته لم يكن اقتنع فيها تمامًا بعد بأن هذا السفر جزء من الكتاب المقدس أصلاً. يقول لوثر فى تقديمه لنسخة ألمانية من الكتاب المقدس نشرها فى سنة ١٥٢٢م: «إن روحى لا تستطيع أن تتوافق مع هذا السفر. وهناك سبب كافٍ واحد لضعف تقديرى له هو أنه لا مكان فيه للمسيح وتعاليمه»(١٠).

ولم يكن لوثر هو الوحيد أو أول من نظر إلى سفر الرؤيا نظرة انزعاج من قراء الكتاب المقدس. ولدى ظهوره أول مرة كاد سفر الرؤيا يستبعد من الكتابات المقدسة المسيحية، وكان نصه الغريب الزاخر بالعذاب والانتقام مصدر حيرة وغضب وتهديد وإساءة للكثير من المسيحيين ممن كانوا مستعدين لتقبل السفر كنص مقدس. ومع ذلك فإن سفر الرؤيا فى نهاية الأمر استحوذ على المخيلة المسيحية ـ والغربية بصورة من الصور ـ على مدار القرون الخمسة عشر التالية. كان يمكن لسفر يوحنا الصغير العذب على اللسان والمر فى المعدة أن يمنى بالفشل كعمل نبوئى ولكنه ظل يحقق شعبية كبيرة ـ إن صح التعبير ـ فى العصور الوسطى وما بعدها.

كان سفر الرؤيا يعتبر فى نظر بعض السلطات المسيحية دومًا سفرًا ذا خطر. فالنص، كما أراد له يوحنا على ما يبدو، قادر على استثارة مشاعر حادة فى نفوس قرائه وسامعيه. وهو بدوره رغبة فى الثأر، وموكب للفظائع، ونوع من العروض الغريبة. والنص بعنفه وجموحه يُغرق بعض القراء فى نوبات من النشوة الروحية يسمعون فيها الأصوات السماوية ويشهدون مشاهد الإعجاز. وفى أيامنا هذه قد نميل بالطبع إلى

اعتبار ظواهر كهذه ضربًا من المرض العقلى، إلا أن كهنة الكنيسة المسيحية فى طور النشأة كانوا ينظرون بعين الشك أيضًا للعوام ممن كانوا يدعون أنهم أصحاب رؤى.

وأقدم مثال مسجل للتطرف الدينى المستوحى من سفر الرؤيا يرجع إلى أواسط القرن الثانى، أى بعد ظهور النص أول مرة فى العالم المسيحى بحوالى نصف قرن. إذ كان سفر الرؤيا النص الأثير فى الكتاب المقدس لدى رجل يدعى مونتانوس ظهر فى حوالى سنة ١٥٦م بمنطقة من آسيا الصغرى تسمى «فريجيا» لا تبعد كثيرًا عن الكنائس السبع التى وجه يوحنا إليها رسائله، وأعلن أنه نبى. وكان من زمرة أتباعه مكسيميليا وبريسكا وهما فتاتان لهما شخصية كارزمية كمونتانوس نفسه، وكانتا تدخلان فى نوبات وَجْد وتزعمان أنهما تتلقيان وحيًا من لدن الرب مباشرةً، وهى ظاهرة أصبحت تعرف بـ«النبوة الجديدة».

وكسائر الأنبياء المستقلين ممن جاءوا قبلهم وبعدهم، كان أتباع مونتانوس يعدون من أصحاب الأرواح السامية فى نظر السلطات الدينية التى آثرت أن تقصر النبوة على النصوص المعترف بها فى الكتاب المقدس. فلو تُرك الناس أحرارًا يعلنون أنفسهم أنبياء على هواهم لالتهبت أخيلة المتدينين المسيحيين بغرائب الرؤى وأخطرها وما لا سبيل للسيطرة عليه منها؛ لذا فإن الكنيسة كذبت أتباع مونتانوس واعتبرتهم هراطقة، لكن مونتانوس ونبيتيه واصلوا مهمتهم التى كَلفوا بها أنفسهم. بل كانوا يرون أن لا داعى لانزعاج الكنيسة من ظهور أدعياء النبوة؛ لأن نبوءاتهم عن آخر الزمان على وشك أن تتحقق على أية حال. وأعلنت مكسيميليا قائلة: «لا نبوة بعدى، بل النهاية»(١١).

وعلى ضوء رؤى سفر الرؤيا، أقنع أتباع مونتانوس أنفسهم ـ وسعوا لإقناع غيرهم ـ بأن النهاية وشيكة. وكانوا يقولون إن المسيحى التقىّ يجب أن يهجر لهو الحياة العادى ويستعد للقاء خالقه. وأخذوا يحثون الأرامل من الرجال والنساء على عدم الزواج والمتزوجين على عدم الإنجاب: «فدعوة الكتاب المقدس للتكاثر والتوالد تبطلها حقيقة أننا فى آخر الزمان»(١٢). والأهم أنهم كانوا يرفضون اعتبار المشاهد الخيالية فى سفر الرؤيا علامات ورموزًا للتدبر والخروج بمعان خفية. بل كانوا يصرون

كغيرهم ممن لا يحصون عددًا من النساك وأهل الرؤى على مر القرون والألفيات على قراءة نص سفر الرؤيا باعتباره حقيقة مطلقة وحَرفية.

يصف يوحنا فى سفر الرؤيا، مثلاً، كيف انتقل «بالروح» إلى قمة جبل، حيث وعده ملَك بأن يريه «الْعَرُوسَ امْرَأَةَ الْحَمَلِ». إلا أن ما رأى كان فى الحقيقة مدينة أورشليم [القدس] «نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ» وهى تتلألأ بمجد الرب وقواعدها كأنها بنيت بأحجار كريمة من كل لون وأسوارها من يشب ولؤلؤ، وأسواقها ومبانيها من ذهب خالص[١٣]. ويبدو أن يوحنا نفسه يسلم جدلاً بأن «امرأة الحمَل» ليست سوى رمز لأورشليم [القدس] السماوية، ويقول إن المدينة السماوية شىء لن يراه إلا القديسون والشهداء الذين يُبعثون وإلا بعد دمار العالم.

إلا أن أتباع مونتانوس عاشوا يستعجلون رؤية أورشليم [القدس] الجديدة هنا والآن: بناء معجز من ذهب وجواهر تنزل من خلال السحب وتهبط على الأرض. وكانوا يتجاهلون ما فى سفر الرؤيا من فقرات يعلن فيها يوحنا أن النص ينبغى أن يُقرأ «رُوحِيًّا»، أى كمجموعة كنايات ورموز[١٤]. بل كانوا على اقتناع بأن المدينة السماوية ستستقر على مقربة من بلدة تسمى «بيبوزا» لا تبعد كثيرًا عن المدن السبع التى تخاطَب فى سفر الرؤيا وفى منطقة فريجيا منشأ أتباع مونتانوس. وككثرة من قراء سفر الرؤيا وسامعيه بدءًا من القدم وانتهاءً بعصرنا الحالى كانوا يؤمنون بفكرة أن يوحنا كان يتنبأ بحقيقة أشياء لا بد أن تحدث قريبًا وبالحَرفية التى وردت بها.

لم يكن المسيحيون السذج بالمناطق الداخلية من آسيا الصغرى الوحيدين الذين انخدعوا بفتنة مونتانوس ونبييه. فكان أشهر من اعتنق المونتانية ترتوليان (١٦٠ ـ ٢٢٠م) وهو لاهوتى من الكنيسة الأولى بقرطاج، وكان مقتنعًا أيضًا بأنه سيرى المشاهد الغريبة نفسها بعينيه. ويكتب ترتوليان متحدثًا فى يقين عن تقارير وردت من جنود مرابطين بإقليم فلسطين الرومانى يزعمون فيها رؤية قمم مدينة وأبراجها تحلق فى الأفق فجرًا ـ وهى بالطبع بشائر أورشليم [القدس] السماوية! وانتظار ترتوليان يوم الحساب ينم عن توق للثأر كما يصوره سفر الرؤيا بوضوح لا مزيد عليه.

وترتوليـان الـذى يتنبـأ بـأن الـولاة الرومـان الـذين كـانوا يضـطهدون المسـيحيين سيعذبون فـى «نـار أشـد ضـراوة مـن تلـك التـى أوقـدوها فـى أيـام مجـدهم ضـد أتبـاع المسيح» ، ويعبر عـن حماسـه قـائلاً : «يـا لـه مـن مشـهد رهيـب ذلـك الـذى ستشـهده الأعين ! » (١٥).

ولم يكـن أتبـاع مونتـانوس أدعيـاء النبـوة الوحيـدين الـذين أثـاروا قلـق العـوام مـن المسيحيين. إذ ظهرت نبية بمكان آخر من آسيا الصغرى فى القرن الثانى ، مثلاً ، ودعـت الأهـالى فـى كابادوشـيا لـترك ديـارهم والتوجـه بصـورة جماعيـة إلى أورشـليم [القـدس] للترحيب بيسوع المسيحى لدى ظهوره الثانى. وظهر حالم آخـر يـدعى يهـوذا اقتـدى بسـفر الرؤيا فى إعادة تأويل سفر دانيال لنفسه ، وأكد لإخوانه المسيحيين بالإسكندرية أن عـدو المسيح ظهر ، وهو زعم لم يؤخذ على محمل الجد حسب قول يوسبيوس المؤرخ الكنسـى الكبير (٢٦٣ ـ ٣٣٩) إلا نتيجة لموجة من الاضطهاد «شوشت عقول العوام» (١٦).

كمـا لم تكـن بريسـكا ومكسـيميليا العنصـر النسـائى الوحيـد أو الأول فـى صـدر المسيحية الذى ظن أن روح النبوة تلبسته. بل إن النبية التى يسميها يوحنا «إيزابل» كانت مثالاً أقدم على الظاهرة نفسها. إلا أن السلطات الكنسية كانت كمؤلف سفر الرؤيا نفسه تميل لنبذ أية عرافة من جنس النساء باعتبارها دعية نبوة. وفـى مواجهـة كـل جهـد تبذلـه الكنيسـة لقمـع هـؤلاء الحالمات فـإنهن لم ينمحين تمامًـا مـن التـاريخ ، وسـنلقاهن مـرارًا وتكرارًا على صـفحات هـذا الكتـاب. وتشـير الناشـطة النسـائية وباحثـة الكتـاب المقـدس ميرى مالون قائلة : «مع ذلك فنحن نسمع كثيرًا ما يطمئننا من أن العديد من النسوة فى مختلف بقاع المسيحية لا يزلن يسعين لأداء أدوار الوعاظ والمبشرين والكهنة» (١٧).

ومن الغريب أن خطأ نبوءات مونتانوس وغيره مـن نـذيرى الشـؤم لم يكـن أمـرًا ذا بال بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين من أتبـاعهم ، وهـى ظـاهرة أخـرى سنصـادفها مـرارًا فـى تاريخ نهاية العالم. بل إن عدم نزول «أورشليم [القـدس] الجديـدة» فـى بيبـوزا أعطـى أتباع مونتانوس «حياة ومظهرًا جديدين كنوع مـن مسـيحية النخبـة ، حيـث لم تكـن ثمـة سلطة أخرى توجههم فى حياتهم الجديدة سوى «الروح القدس» الماثلة فيهم مباشرةً»

حسب قول أحد الباحثين الكاثوليك[١٨]. فلو كان يوحنا اصطفاه الرب دون غيره لتلقى الرؤى الغريبة المسجلة فى سفر الرؤيا، فإن الهبة الإلهية نفسها قد توهب لغيره ممن جاءوا بعده، وربما كانوا سيفلحون فيما أخفق هو فيه من معرفة الخطة الإلهية الكبرى لنهاية العالم.

وهكذا سعى أعداء «النبوة الجديدة» إلى تكذيب سفر الرؤيا نفسه؛ لأن بعض السلطات الكنسية كانت تخشى مما قد ينجم عن أخيلة قراء سفر الرؤيا وسامعيه. وقالوا إنه ليس من عمل القديس يوحنا اللاهوتى، ونسبوا وضعه لرجل يدعى كيرينسوس كان متهمًا بالهرطقة والفسق؛ لأنه تراءى له أن حكم المسيح لمدة ألف سنة على الأرض فرصة «للقديسين» للانغماس فى «النهم والشهوات بالولائم ونوبات الشراب والأعراس»[١٩]. وبإنكار كون سفر الرؤيا من الكتابات المقدسة، سعى خصوم مونتانوس لتسديد ضربة غير مباشرة لدعى النبوة ذى الشخصية الكارزمية ولعصبة النبيات الهاويات من حوله ولأتباعهم المهووسين جميعًا.

لكن شيئًا أكبر من غرائب مونتانوس وكرينيسوس وتجاوزاتهما تعرض للخطر فى الحملة على إضفاء القدسية على سفر الرؤيا. فأدعياء النبوة ودعياتها على السواء كانوا فى نظر كبار رجال الدين بمثابة خطر ماحق على الشريعة والنظام اللاهوتيين. ونظرًا لأن سفر الرؤيا كان يبدو حينئذ ــ ولا يزال إلى الآن ــ «نصًّا اختياريًّا» بالنسبة لأصحاب الرؤى وأهل الوجد ــ ولأنه يبدو كأنه يقر أحلامهم المحمومة ورؤاهم الشاذة ــ فإن النص نفسه غالبًا ما تحوم حوله الشبهات[٢٠]. إذن كان إخراج سفر الرؤيا من الكتاب المقدس بالنسبة لبعض السلطات المسيحية المتشددة كاستئصال سرطان خطير.

وشكل سفر الرؤيا مشكلة أخرى غريبة للكنيسة المسيحية الأولى وهى تكافح حتى تجد طريقًا للبقاء فى روما الوثنية. فأباطرة الرومان يشبَّهون فى سفر الرؤيا بوحوش شيطانية تجلس على عرش إبليس. وثراء نمط الحياة الهيلينى وأبهته موضع إدانة باعتبارهما «رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ»[٢١]. وأى مسيحى يهادن واقع روما الاستعمارية مدان بالتعاطى مع «أَعْمَاق الشَّيْطَانِ»[٢٢]. ونظرًا لأن يوحنا محارب حضارى لا يعرف

المهادنة وعدوه الأكبر الحضارة الرومانية نفسها، فإن كتاباته شكلت إحراجًا لأى مسيحى يسعى لكسب صداقات والتأثير على الناس فى الإمبراطورية الرومانية.

وفى مواضع أخرى بالعهد الجديد نجد أن واضعى الأناجيل أكثر توافقًا مع روما. فهناك «التفاف» لا تخطئه العين فى رواية الإنجيل عن القبض على يسوع ومحاكمته وإعدامه، تبعد اللوم عن السلطات الرومانية فى يهوذا المحتلة إلى كهنة هيكل أورشليم [القدس] من اليهود. ونجد يسوع نفسه يلفظ الكلمات التى يمكن فهمها كتعاليم بالخضوع للسلطات الرومانية: «أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ»(٢٣). ويلاحظ أن يسوع يوضح كلامه بإمساك عملة رومانية تحمل اسم إمبراطور وثنى وصورته ــ أى «وسم الوحش» عند يوحنا. وفى حين يمكن فهم مقولة يسوع الشهيرة بأكثر من طريقة فإن بولس الرسول يؤيد مهادنة روما. يقول بولس: «لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ»(٢٤). وطالما أن المسيحيين كانوا يواجهون ـ أو يخشون ـ الاضطهاد من قبل السلطات الرومانية فإن سفر الرؤيا كان يقدم السلوان لمعاناتهم الراهنة الفعلية أو الوهمية والوعد بثأر دامٍ فى آخر الزمان. إلا أن ازدراء روما الاستعمارية الذى يزخر به سفر الرؤيا يبطل فجأة وبشكل تام باعتناق الإمبراطور قسطنطين (٢٨٠ ــ ٣٣٧م) المسيحية بأوائل القرن الرابع. وفى عهد قسطنطين وبنيه ارتقت المسيحية من طائفة مهمشة ومجرَّمة إلى ديانة تحظى بحماية الأسرة الإمبراطورية وإيثارها، ثم إلى ما يشبه حكومة ظل يشمل سلطانها كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية. وما إن أصبح الإمبراطور الرومانى مسيحيًا بدلاً من مضطهد للمسيحيين لم يعد لإدانة روما الاستعمارية فى سفر الرؤيا معنى، بل إن الكنيسة المسيحية أعطت نفسها لقب «المحارب والظافر الكنسى».

إن الإمبراطور الرومانى فى نظر يوحنا عميل إبليس المخضب بدماء الشهداء المسيحيين. أما بالنسبة للمسيحيين الذين كانوا يعيشون فى ظل حكم قسطنطين فإن الإمبراطور الرومانى ظل الرب على الأرض. يقول يوسيبيوس الذى عمل كاتب أخبار كنسيًا ومؤرخ البلاط فى عهد قسطنطين الطويل: «كما أنه ليس هناك إلا إله واحد

فليس هناك سوى إمبراطور واحد »[٢٥]. ويؤكد يوحنا أن روما التى يسميها «بَابِلُ الْعَظِيمَةُ أُمُّ الزَّوَانِى وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ» ستدمر فى آخر الزمان. فيقول أحد الملائكة فى أحد رؤاه: «سَقَطَتْ بَابِلُ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ لأَنَّهَا سَقَتْ جَمِيعَ الأُمَمِ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ زِنَاهَا»[٢٦]. إلا أن يوسيبيوس «لم يضايقه كثيرًا أن يميز عهد قسطنطين عن عهد مملكة المسيح»[٢٧] ويصف الإمبراطورية الرومانية فى عهد أول إمبراطور مسيحى بأنه شىء أشبه بالجنة على الأرض.

يقول يوسيبيوس: «ربما ظنها المرء بشائر مملكة المسيح، وحلمًا لا حقيقة»[٢٨].

ودفع التناقض الصارخ بين ما تنبأ به يوحنا وما حدث فعلاً فى روما الاستعمارية ببعض المتدينين بل بعض العمليين أيضًا فى الإمبراطورية التى اعتنقت المسيحية إلى اتخاذ قرار بضرورة احتواء سفر الرؤيا أو فصله عن الكتاب المقدس تمامًا. وهذا النشوز الإدراكى نفسه دفع بمسيحيين آخرين إلى الذهاب لآفاق غير عادية لتفسير ما بدا كمجموعة رؤى شائهة وعنيدة. فكان مهاجمو سفر يوحنا الصغير والمدافعون عنه على السواء يتجهون نحو مشكلة واحدة عسيرة من اتجاهين عكسيين، ألا وهى أن الأباطرة المسيحيين أصبحوا يرتقون ما يعتبره يوحنا عرش الشيطان.

الحقيقة أن أكبر مشكلات سفر الرؤيا أن العالم لم ينته. فيوحنا يؤكد أنه رأى «مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَنْ قَرِيبٍ»، ومع ذلك مرت سنوات وعقود وقرون ولا تزال روما تحكم العالم[٢٩]. وبالنسبة للمسيحيين القدماء ممن كانوا يعتبرون سفر الرؤيا كلمة الرب المنزلة كان فشل نبوءاته الواضح محرجًا ولكن لا مراء فيه.

تقول المؤرخة وباحثة العهد الجديد پولا فريدريكسن: «بعدم انتهاء التاريخ فى موعده اضطرت الكنيسة اضطرارًا للتوافق مع نبوءتها الأساسية»[٣٠].

ويوحنا ليس الشخصية الوحيدة فى الكتاب المقدس التى خابت تنبؤاتها عن نهاية العالم، أو كانت سابقة لأوانها بشكل فج. فسفر دانيال ــ كما رأينا ــ يبدو واثقًا فى نبوءته بأن نهاية العالم ستحدث بعد «أَلْفٌ وَمِائَتَيْنِ وَتِسْعِينَ يَوْمًا» بالضبط من «إِقَامَةِ رِجْسِ الْمُخَرَّبِ»[٣١]. والمؤلف غامض بشكل يثير الحنق بالطبع فى وصفه الحدث الذى

يفترض أن يبدأ العد التنازلى بعده ـ ربما كان «رِجْسِ الْمُخَرِّبِ» صورة وثنية نصبها غزاة يهوذا السوريون فى هيكل أورشليم [القدس] فى القرن الثانى قبل الميلاد ـ ثم يضعف صدقيته بقوله بعد ذلك بفقرة واحدة بأن فترة الانتظار هى فى الحقيقة «أَلْفٌ وَثَلاَثُ مائة وَخَمْسَةٌ وَثلاثُونَ يَوْمًا». إلا أن المؤلف يطمئن قراءه إلى أن مثل هذا المبهمات والتناقضات لا ينبغى أن تزعج المؤمن الحق، وهو إيمان بنبوءات الكتاب المقدس لا يزال قائمًا حتى الآن.

يقول واضع سفر دانيال: «وَلاَ يَفْهَمُ أَحَدُ الأَشْرَارِ لَكِنِ الْفَاهِمِينَ يَفْهَمُونَ»(٣٢).

ويسوع أيضًا يصوَّر فى الأناجيل وهو يعلن أن النهاية وشيكة. وهو فى الحقيقة يقتبس من سفر دانيال ـ «فَمَتَى نَظَرْتُمْ «رِجْسَةَ الْخَرَابِ» الَّتِى قَالَ عَنْهَا دَانِيالُ النَّبِى قَائِمَةً فِى الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ ـ لِيَفْهَمِ الْقَارِئُ ـ فَحِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ الَّذِينَ فِى الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ»(٣٣)، ووصفه آخر الزمان لا يقل ترددًا ولكنه أكثر حدة إذا قورن بأوصافه فى سفر الرؤيا. فيقول المؤلف على لسان يسوع فى «الرؤيا الصغرى» كما وردت فى إنجيل متى: «وَيْلٌ لِلْحَبَالَى وَالْمُرْضِعَاتِ فِى تِلْكَ الأَيَّامِ. صَلُّوا لِكَى لاَ يَكُونَ هَرَبُكُمْ فِى شِتَاءٍ وَلاَ فِى سَبْتٍ، لأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ ضِيقٌ عَظِيمٌ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْعَالَمِ إِلَى الآنَ وَلَنْ يَكُونَ»(٣٤).

ويؤكد يسوع ـ كما سبقت الإشارة ـ أن بعضًا من معاصريه سيكونون شهود عيان نهاية العالم ـ كسوف الشمس وخسوف القمر وتساقط النجوم من السماء والمجاعات والأوبئة والزلازل(٣٥)، ومجىء «ابن الإنسان» «بِمَجْدِ أَبِيهِ مَعَ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ»(٣٦). وتأكيداته التى تتسم بالصعوبة على المعلمين والمبشرين اللاحقين؛ لأنها واضحة تمامًا ولكنها خطأ تمامًا تطالعنا فى كل من إنجيل مرقس «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ هَهُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ اللَّهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ»(٣٧) وإنجيل متى: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَمْضِى هَذَا الْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ»(٣٨).

فعاش المسيحيون الأوائل فى توقع دائم أن يشهدوا نهاية العالم. فتصف رِسَالَةُ بُولُسَ الرَّسُولِ الأُولَى إِلَى أَهْلِ تَسَالُونِيكِى، مثلاً، ما أصبح يعرف باسم «الاختطاف»

أى الرفع المفاجئ للمسيحيين المؤمنين من الأرض إلى السماء لدى المجىء الثانى ليسوع المسيح. يقول بولس: «لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِهُتَافٍ بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلاَئِكَةٍ وَبُوق اللهِ وَالأَمْوَاتُ فِى الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلاً، ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِى السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِى الْهَوَاءِ»[٣٩]. والحقيقة أن نبوءة بولس القاطعة تحويها رسالة ربما أنشئت فى سنة ٤٩ ميلادية، وهو «أقدم شاهد محدد تاريخه على المسيحية كما نعرفها» حسب قول بعض الباحثين[٤٠].

لكن العهد الجديد يضم أيضًا كتابات تسعى لهدم التوقعات الرؤيوية للمسيحيين الأوائل. فـ«رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكى» تتراجع عن الوعد بقرب النهاية، وهو أحد الأسباب التى ترجح أنها دونت بعد الرسالة الأولى بمدة طويلة وبقلم مؤلف غير بولس. فيقول الكاتب على لسان بولس فى الرسالة الثانية: «ثُمَّ نَسْأَلُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ مَجِىءِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَاجْتِمَاعِنَا إِلَيْهِ أَنْ لاَ تَتَزَعْزَعُوا سَرِيعًا عَنْ ذِهْنِكُمْ وَلاَ تَرْتَاعُوا لاَ بِرُوحٍ وَلاَ بِكَلِمَةٍ وَلاَ بِرِسَالَةٍ كَأَنَّهَا مِنَّا: أَىْ أَنَّ يَوْمَ الْمَسِيحِ قَدْ حَضَرَ». ثم يضيف ما يبدو كأنه إشارة لسيناريو آخر الزمان بسفر الرؤيا: «لاَ يَخْدَعَنَّكُمْ أَحَدٌ عَلَى طَرِيقَةٍ مَا لأَنَّهُ لاَ يَأْتِى إِنْ لَمْ يَأْتِ الارْتِدَادُ أَوَّلاً وَيُسْتَعْلَنَ إِنْسَانُ الْخَطِيَّةِ ابْنُ الْهَلاَكِ»[٤١].

ويستبعد يسوع نفسه أن يكون لديه أى علم مؤكد بموعد نهاية العالم. ففى فقرة شهيرة بإنجيل مرقس يقال على لسان يسوع: «فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِحُرُوبٍ وَبِأَخْبَارِ حُرُوبٍ فَلاَ تَرْتَاعُوا لأَنَّهَا لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ الْمُنْتَهَى بَعْدُ»[٤٢]. فيحذر يسوع تحديدًا من «مُسَحاء زائفين وأدعياء نبوة» يحاولون تضليل المسيحيين الأتقياء بزعمهم معرفة موعد آخر الزمان أو تفاصيله[٤٣]. ويؤكد يسوع أن لا أحد فى السماء أو فى الأرض - حتى هو نفسه! - وُهب رؤيا عن يوم القيامة. ويرد على لسان يسوع: «حِينَئِذٍ إِنْ قَالَ لَكُمْ أَحَدٌ: هُوَ ذَا الْمَسِيحُ هُنَا أَوْ هُوَ ذَا هُنَاكَ فَلاَ تُصَدِّقُوا... وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِى السَّمَاءِ وَلاَ الابْنُ إِلاَّ الآبُ»[٤٤].

وربما حذر يسوع أتباعه من الحدس العقيم حول موعد نهاية العالم، لكن كلماته

لم تُجْدِ فى منع بعض قراء سفر الرؤيا من الإقدام على ما أَمر بعدم الإقدام عليه. بل إن كافة ما بذل من جهود لفك طلاسم سفر الرؤيا كانت دائمًا موضع انتقاد رجال الدين الأتقياء باعتبارها مما لا يليق، بل خطيئة. يقول راولى: «إن المحاولات التى لا حصر لها من قبل أتباع يسوع للخروج بمعرفة دقيقة تقوم فى نظرى دليلاً على عدم الولاء له، وهو الذى أعلن أن الأسرار التى يسعون للتكهن بها بغير طائل تخص الرب دون سواه»[٤٥]. لكن مثل هذه التحذيرات لم تحل دون ظهور أجيال لا حصر لها من أصحاب الرؤى والحالمين، بدءًا من النبيتين بريسكا ومكسيميليا وانتهاءً باللاهوتيين التليفزيونيين ممن يقرعون بأيديهم على الكتاب المقدس، ومؤلفى أكثر الكتب مبيعًا فى عصرنا الراهن من إقناع أنفسهم والسعى لإقناع غيرهم بأنهم يعلمون متى ينتهى العالم.

إن سفر الرؤيا ليس النص القديم الوحيد الذى اعتبره بعض رجال الدين فى سنوات الكنيسة المسيحية الأولى أعقد من أن يُسبر غوره. ففى مكان ما فى صحراء مصر بنجع حمادى، مثلاً، عثر على مجموعة من البرديات تعرف بـ«الأناجيل العرفانية» دفنها أحد المسيحيين الخائفين فى الرمل؛ لأن السلطات الكنسية اعتبرتها ضربًا من الهرطقة. ومن بين نصوص المسيحية الأولى الممنوعة كان هناك عدد كبير من الرقاع الرؤيوية تحتفظ إحداها بمحاكاة بارعة لأشهر سطور سفر الرؤيا. فتقول إحدى فقرات «سفر الرعد»: «أنا الأول والآخِر، أنا المعظم والذليل، أنا الزانية والتقىّ»[٤٦].

والمصير الذى آلت إليه «الأناجيل العرفانية» يوحى بما كان سيحدث لسفر الرؤيا لو أفلح مدعى الرقابة؛ إذ ظلت «الأناجيل العرفانية» مدفونة ومنسية لألفى سنة إلى أن استعادها الآثاريون من نجع حمادى فى القرن العشرين، وأعادوا بها كتابة فصل قديم فى تاريخ المسيحية، وكان سفر الرؤيا أيضًا معرضًا لفقد مكانته ضمن الكتابات المقدسة المسيحية بل ربما للاختفاء من التراث المسيحى كالنصوص الرؤيوية اليهودية التى حُذفت من التراث اليهودى ومنها سفر أخنوخ.

والحالة غير المستقرة لسفر الرؤيا فى الكنيسة المسيحية الأولى تؤكدها كتابات الآباء الكنسيين. فالمؤرخ القديم يوسيبيوس يقرر صراحةً أن سفر الرؤيا «كان أصيلاً فى نظر

البعض وملفقًا فى نظر غيرهم »[٤٧]. وفى بعض الفترات احتدم الجدل حول سفر الرؤيا لدرجة أنه كان يفرق بين أفراد الأسرة الواحدة. فهناك مفسر قديم مرموق هو جريجورى ناتسيانسوس ينقل عن سفر الرؤيا فى أعماله، فى حين أن ابن عمه أمفيلوكيوس آيكونيوم يقول إن « معظم الناس يعتبرونه ملفقًا »[٤٨].

ويعد الجدل حول ما إذا كان سفر الرؤيا يدخل ضمن الكتاب المقدس تشكيكًا فى هوية مؤلفه. فحسب اختبارات صبغة عباد الشمس التى كان يطبقها آباء الكنيسة الأولون، لم يكن يؤذن بالضم إلى العهد الجديد إلا للكتابات التى يعترف بأنها « رسولية »، أى ما كان مؤلفها من تلاميذ يسوع. وهكذا فإن هوية الرجل الذى يسمى نفسه « يوحنا » فى سفر الرؤيا ثبت أنها قاطعة. فلو كان المؤلف يوحنا بن زبدى أحد تلاميذ يسوع الناصرى الاثنى عشر الأصليين فإن سفر الرؤيا كان جديرًا بالضم، أما إذا كان المؤلف « يوحنا آخر » كما أعلن الأسقف ديونيسيوس بالقرن الثالث فكان لا بد من حذفه من النصوص المقدسة المسيحية[٤٩]. أما شعور ديونيسيوس بالصدمة إزاء سفر الرؤيا باعتباره « لغوًا ولا داعى له » فهو أمر يقترب من هذه النقطة، فيقول: « الأمور التى لا أفهمها لا أرفضها، ولكنى أعجب لعدم قدرتى على إدراكها »[٥٠].

ومن الأمثلة الكاشفة عن الطريقة التى كان يتم بها إضفاء الشرعية الكنسية فى العالم المسيحى القديم، وكيف تم ذلك فى حالة سفر الرؤيا ما يمكن الاستدلال عليه من المصير الذى آل إليه عمل مثل « راعى هرماس ». فهو نص غريب كسفر الرؤيا يضم فقرات نبوئية ورؤيوية، ويقدم زائرًا سماويًّا يعطى لأحد بنى البشر القدرة على قراءة سفر من الأسرار الإلهية وفهمه. ولعله أنشئ فى فترة ما بعد سنة ٩٠م، ما يعنى أن « راعى هرماس » كان معاصرًا لسفر الرؤيا تقريبًا. ومرة أخرى وكما حدث مع سفر الرؤيا يعتقد أن مؤلفه يهودى تحول إلى المسيحية. إلا أنه وعلى خلاف سفر الرؤيا يعد مسيحيًّا خالصًا يزخر بإشارات إلى الكنيسة والكهنة والشعائر والطقوس المسيحية وغيرها من العناصر المفتقدة إلى حد كبير فى سفر الرؤيا.

ومع ذلك وجد سفر الرؤيا ترحيبًا فى لائحة الأسفار المسيحية فى حين تم استبعاد

سفر «راعى هرماس» لسبب بسيط هو أن مؤلفه لم يكن أحد تلاميذ يسوع المسيح. وكان عملا وضع حديثًا بقلم رجل قدم نفسه كأحد ساكنى روما[٥١]. وحقق السفر شعبية بين الطوائف المسيحية فى القرن الثانى، إلا أن شعبيته لم تشفع له فى اكتساب الشرعية الكنسية. واستُبعد سفر «راعى هرماس» من أقدم وثيقة باقية تحدد لائحة الأسفار الكنسية ـ ما يعرف بـ «اللائحة الموراتورية» بأواخر القرن الثانى ـ بتعليل بسيط وكافٍ هو أنه دوّن «فى عصرنا»[٥٢].

وفى القرن الرابع كان صناع القوائم لا يزالون منقسمين حول مسألة ما إذا كان ينبغى ضم سفر الرؤيا إلى الكتابات المقدسة المسيحية. فها هو أثاناسيوس (٢٩٣ ـ ٣٧٣م) أسقف الإسكندرية ومناضل صليبى شرس على الهرطقة المسيحية من أى نوع يضم سفر الرؤيا إلى قائمة أسفار العهد الجديد، ولكنه حذف من القوائم التى أنشأها وأقرها كيريل الأورشليمى (٣١٥ ـ ٣٨٦م) ومجلس لاودكية أحد المدن السبع التى يخاطبها مؤلف سفر الرؤيا. بل إن سفر الرؤيا حامت حوله الشبهات بصفة خاصة فى القسم الشرقى من العالم المسيحى، ويغيب بشكل ملحوظ عن الشواهد التوراتية التى ترد فى كتابات آباء الكنيسة المقيمين بمدن شرقية مهمة كأنطاكية والقسطنطينية.

والحقيقة أن سفر الرؤيا لم يكن محور أول انقسام فى نسخ الكتاب المقدس القديمة كما عرفت وتم تداولها فى المسيحية الشرقية. فرفضت الكنيسة السورية الشرقية سفر الرؤيا ولا وجود له على الإطلاق فى أقدم ترجمة سورية للكتابات المقدسة المسيحية. وفى القرن التاسع كان سفر الرؤيا لا يزال موسومًا كسفر «متنازع عليه» فى كتابات كنيسة بيزنطة، وتم حذفه كليةً من إحدى القوائم البيزنطية للنصوص المسيحية التى ضمها باعتبارها نصوصًا قانونية. ولم يبدأ ظهور سفر الرؤيا بشكل اعتيادى فى المخطوطات اليونانية للعهد الجديد فى أرجاء العالم المسيحى إلا فى القرن العاشر[٥٣].

ربما كانت لسفر الرؤيا بداية بطيئة ومترددة فى المنطقة التى أنشئ فيها، إلا أن الأقاليم الغربية من الإمبراطورية الرومانية كانت أكثر تقبلاً له. فالعهد الجديد كما عرف وتم تداوله فى الغرب كان دائمًا يضم سفر الرؤيا، وأصبحت للنص مكانة خاصة فى كل من ألمانيا

وفرنسا وإنجلترا. بل يبدو أن سفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ يتحرك غربًا باستمرار عبر أوروپا ونحو أمريكا، وهى حقيقة لها عواقب مفجعة بالنسبة لوظيفته فى عصرنا.

ظل سفر الرؤيا يحمل طابعًا سيئًا ما حتى بعد أن ضمن مكانه ضمن النصوص المقدسة المسيحية. فاللغة المجازية الشاذة والمذابح الرهيبة التى يؤثرها يوحنا كانت دومًا منفرة للمبشرين والمعلمين المسيحيين الأكثر التزامًا. فما من كلمة واحدة فى السفر برمته تقدم درسًا أخلاقيًّا تبين للمرء كيف يعيش حياة طيبة على الأرض. وكان كبار رجال الدين قلقين دائمًا من أن تجد بريسكا جديدة أو مكسيميليا أخرى فى سفر الرؤيا ما يشجعها على الشروع فى تفريغ رؤاها ونبوءاتها. فسفر الرؤيا أجيز ولكنه ظل مستبعدًا على مسافة آمنة لدى بعض السلطات الكنسية.

ومن مقاييس مكانته الهامشية فى المسيحية الأولى، مثلاً، بقاء أقل من مائتى مخطوط من سفر الرؤيا بنصه اليونانى الأصلى من القدم فى مقابل ألفى مخطوط من الأناجيل. يقول باحث الكتاب المقدس الپروتستانتى والعالم اللاهوتى كادمن كولويل: «هذه الأعداد تمثل بدقة المكانة النسبية لهذه الأسفار فى العالم المسيحى الشرقى حتى العصور الوسطى». وهناك مظهر آخر للظاهرة نفسها يمكن إدراكه فى تفسير توراتى قديم قام واضعه بتحويل فقرات من سفر الرؤيا إلى اليونانية الدارجة، بينما ترك سائر أسفار العهد الجديد دون تعديل ليونانية النص الأصلى الأقرب للفصحى؛ لأنها وعلى خلاف سفر الرؤيا «أقدس من أن تعدَّل!»[٥٤].

وحتى فى عصر «الإصلاح» حين كان النزاع بين الپروتستانت والكاثوليك مسألة حياة أو موت، وافقت قلة من اللاهوتيين من الطرفين على شىء واحد هو أن سفر الرؤيا نص خطير يتطلب تناولاً حذرًا. وهناك تعليق ساخر عن سفر الرؤيا لعالم اللاهوت من عصر النهضة ديزيديريوس إيراسموس (١٤٦٩ ـ ١٥٣٦م) فى مقال نشر بأوائل القرن السادس عشر يقول فيه: «بعض الذهب أنقى وأجود من غيره. وفى المقدسات أيضًا هناك ما هو أقدس من غيره»[٥٥]. ولم يكن مارتن لوثر الراهب الكاثوليكى الرومانى الذى أطلق حركة الإصلاح الپروتستانتى أقل ارتيابًا وأقل

موارية، إذ اعترف بميله لاستبعاد سفر الرؤيا من الكتاب المقدس تمامًا على أساس أنه «ليس رسوليًّا ولا نبويًّا»(٥٦). وكان الخط الأمامى فى المعركة حول سفر الرؤيا يُرسم دائمًا بين سلطة الكنيسة وجيش الدهماء من قراء الكتاب المقدس الحرونين الذين يصرون على التوصل إلى استنتاجاتهم الخاصة عن معانيه الباطنية المحجوبة؛ لذا كان دائمًا كما سنرى «نصًّا اختياريًّا» لغرباء الأطوار الدينيين ممن يعتبرون عصرهم آخر الزمان، من مونتانوس بالقرن الثانى إلى ديڤيد كورش بالقرن العشرين ومن لا يحصون عددًا بينهما.

يقول چاك إيلول أستاذ العلوم السياسية وعالم اللاهوت الپروتستانتى الذى تنطبق كلماته وبالقوة نفسها على أتباع مونتانوس والمتعصبين الدينيين بالألفية الثالثة: «ليس هناك سفر يفوقه إثارة للهذيان والحمق والحركات اللاعقلانية، كأنه يحوى قوة إغراء شيطانية. فسفر الرؤيا غالبًا ما يحرك فضولنا ويلهب خيالنا ويثير شهيتنا للغموض وفى النهاية يحجب عنا الحقيقة المحورية التى ينبغى كشفها»(٥٧).

وفى الوقت نفسه أصبح سفر الرؤيا ضروريًّا للاهوت المسيحى لدرجة لا يمكن معها تجاهله. يقول المؤرخ والباحث فى الكتاب المقدس دونالد هارمن أركنسن فى قراءته الجديدة للنصوص المقدسة اليهودية والمسيحية (تخطى الدهشة: ابتداع الكتاب المقدس والتلمود) Surpassing Wonder: The Invention of the Bible and the Talmud: «إن الرؤيا ليس بالسفر اللطيف ولا هى باعث على التهذيب بأى معنى متعارف عليه». ومع ذلك فهو يصف ضمه إلى لائحة الأسفار المسيحية بأنه «خطوة أثرية هائلة»؛ لأن سفر الرؤيا يوجه سائر النصوص المسيحية المقدسة توجيهًا جديدًا. ويقول أركنسن: «إن السفر يدفع المرء لقراءة نص «العهد الجديد» بأكمله كرؤيا تبدأ بمولد يسوع وتنتهى بمملكة المسيح فى الأبدية»(٥٨).

وفى القرن الرابع، قررت السلطات الكنسية أن تعمل شيئًا إزاء استمرار تأثير سفر الرؤيا القوى على قلوب وعقول معظم من يسهل استثارتهم من العوام. فخرجوا بحكم بسيط ومناسب للتحكم فى قراءة سفر الرؤيا. فقالوا إن المسيحى الحق يجب ألا يقترف خطأ مطالعة سفر الرؤيا «مطالعة حسية» ـ أى أخذ رؤى يوحنا عن آخر الزمان حرفيًّا.

بل يجب مطالعة سفر الرؤيا «روحيًّا» ؛ أى أن هذا السفر يجب فهمه كمجاز لا كوصف صريح لما سيحدث فعلاً حين يوشك العالم على النهاية.

كان الحكم بمثابة محاولة صادقة لنزع فتيل القنبلة الموقوتة النشطة التى تطقطق فى ثنايا نص الرؤيا. ومثل الثقل الفعلى لسلطة الكنيسة وخطر «محاكم التفتيش» الرهيب فى تنفيذ هذا الحكم على العوام، ولكن دون نجاح كامل قط. ومن الغريب أن المسيحيين الحرونين ممن أصروا على قراءة الرؤيا «قراءة حسية» لم يكونوا يتحدون عقيدة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وحسب بل التعاليم الواضحة للمؤلف نفسه أيضًا.

فى لحظة حاسمة ما فى سفر الرؤيا، يصف يوحنا رؤيا لما سيحدث فى مدينة لم يرد لها اسم فى آخر الزمان. فينبئ أحد الملائكة يوحنا بأن «الأغيار» - وهو مصطلح متداول فى الكتاب المقدس العبرى ويطلق على غير اليهود - «سَيَدُوسُونَ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ» اثنين وأربعين شهرًا. ثم يعطَى «شاهدان» مجهولان القدرة على التنبؤ لمدة ألف ومائتين وستين يومًا بالتمام. وما أن يتم الشاهدان نبوءاتهما «الْوَحْشُ الصَّاعِدُ مِنَ الْهَاوِيَةِ سَيَصْنَعُ مَعَهُمَا حَرْبًا وَيَغْلِبُهُمَا وَيَقْتُلُهُمَا». وستلقى جثتاهما دون دفن فى الشوارع لمدة ثلاثة أيام ونصف اليوم، ثم يبعثان ويدعوهما صوت إلهى لدخول الجنة[٥٩].

يقول يوحنا فى وصف الكارثة الإلهية التى رأى فى رؤياه: «وَفِى تِلْكَ السَّاعَةِ حَدَثَتْ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ فَسَقَطَ عُشْرُ الْمَدِينَةِ وَقُتِلَ بِالزَّلْزَلَةِ أَسْمَاءٌ مِنَ النَّاسِ: سَبْعَةُ آلاَفٍ وَصَارَ الْبَاقُونَ فِى رُعْبَةٍ وَأَعْطُوا مَجْدًا لإِلَهِ السَّمَاءِ»[٦٠].

ولا يحدد يوحنا المكان الذى يراه فى رؤياه، بل يكتفى بالإشارة إلى «الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِى تُدْعَى رُوحِيًّا سَدُومَ وَمِصْرَ». وبعض المترجمين يترجمون كلمة «روحيًّا» بمعنى «مجازًا» ؛ لأن يوحنا فى الحقيقة يوحى لقرائه وسامعيه بأن اسمى المكان هذين رمزيان تمامًا. ويكشف عن المعنى المقصود للاسمين الرمزيين بوصف «المدينة العظيمة» بأنها مكان «حَيْثُ صُلِبَ رَبُّنَا». بعبارة أوضح فحين يقول مؤلف سفر الرؤيا: «سدوم» و«مصر» فهو يقصد أورشليم [القدس]، أى المدينة الأرضية الخاضعة لاحتلال روما الوثنية، لكنه يقولها بصورة مجازية لا حَرفية[٦١].

وليس هذا أشهر سطر فى سفر الرؤيا، ولكنه من سطوره الكاشفة. ففيه وفى مواضع أخرى من السفر يوضح يوحنا أن الأسماء والأعداد والألوان والصور فى رؤاه شفرات يجب فكها لكشف مقاصدها الحقيقية. ولعل مونتانوس كان يتوقع أن يرى أورشليم [القدس] السماوية تتهادى خلل السحاب فوق بيبوزا وتثير الغبار وهى تهبط لتستقر على الأرض، ولكنه لم ينتبه إلى إشارة يوحنا بقراءة سفر الرؤيا «روحيًّا».

بل إن يوحنا نفسه أُعطى دورة مختصرة فى تفسير الأحلام والرؤى من قبل ناصحيه السماويين. فلأول وهلة، مثلاً، يدهش يوحنا لمرأى الوحش ذى السبعة رءوس الذى تمتطيه زانية بابل. فيقول له أحد الملائكة: «لِمَاذَا تَعَجَّبْتَ؟ أَنَا أَقُولُ لَكَ سِرَّ الْمَرْأَةِ وَالْوَحْشِ الْحَامِلِ لَهَا». ويتبين أن رءوس الوحش السبعة ليست سوى رموز يقصد بها الإشارة ضمن أشياء أخرى إلى سبعة ملوك أرضيين[٦٢]. ويفسر يسوع نفسه «لغز» الكواكب السبعة والمنابر السبعة التى يراها يوحنا فى أولى رؤاه، فما هى إلا رموز لسبع كنائس أرضية يُطلب من يوحنا أن يخاطبها[٦٣].

ومع ذلك فإن يوحنا يعرف كيف يحرك حشدًا، وهو يقصد بالتأكيد أن يتلاعب بمخاوف جمهوره وأهوائهم بمشاهد الجنس واضطهاد السلطات الوثنية العنيف للمسيحيين وانتقام الرب الشديد من مضطهديهم. ورأى آباء الكنيسة الأولون بأنفسهم كيف يمكن لكلمات سفر الرؤيا وصوره القوية أن تحرك فى الناس أحلامهم ورؤاهم الخاصة. وحين ينبهون المسيحيين الأتقياء لقراءة السفر قراءة «روحية» لا «حسية» فإنهم كانوا يكافحون لجعله صالحًا للاستهلاك الآدمى، وهكذا بدءوا مشروعًا طويلاً وفاشلاً يسميه أحد الباحثين «ترويض» التراث الرؤيوى[٦٤].

إن قراءة نص مقدس كمجاز بلاغى لا كحقيقة واضحة كان فكرة قديمة ولها قدرها فى العالم الإغريقى الرومانى، واعتنقها الباحثون وعلماء اللاهوت اليهود والمسيحيون على السواء، ومنهم فيلو السكندرى فى التراث اليهودى وأوريجن وچيروم فى التراث المسيحى. ومن ثم فإن أنصار حَرفية الكتاب المقدس ممن يقدمون أنفسهم فى فقرات سفر الرؤيا التى يظهر فيها القديسون والشهداء وهم يحكمون جنبًا إلى جنب مع يسوع المسيح

فى المملكة الألفية ـ «ظنًّا منهم أنهم ملوك وأمراء كالحكام الأرضيين الموجودين حاليًّا» حسب قول أوريجن ـ أدينوا «لرفضهم إعمال عقولهم»(٦٥).

إلا أن التوجه «الروحى» إزاء النص المقدس لقى أكمل وأقوى تعبير عنه لدى شخصية منسية تسمى «تايكونيوس»، وهو رجل دين مسيحى عاش بأواخر القرن الرابع، ومعظم كتاباته فُقد، لكن تعاليمه تلقى ظلالاً قوية على سفر الرؤيا. كان تايكونيوس يرى أن الصور الرهيبة والأحداث الجليلة فى سفر الرؤيا ــ الوحوش الشيطانية والمحاربون السماويون والمعركة الفاصلة بين الرب والشيطان وحكم يسوع لألف سنة ـ ينبغى فهمها كتعبيرات رمزية عن صراع مستمر بين الخير والشر لا كسرد حرفى لأحداث آتية. فزانية بابل وعروس الحمل فى نظر تايكونيوس ليستا سوى نموذجين للتفرقة بين البشر العاديين بحياتهم الصالحة أو الشيطانية.

وتايكونيوس نفسه حذف تقريبًا من التراث المسيحى؛ لأنه كان «دوناتيّا» أى عضوًا فى طائفة منشقة على الكنيسة الأولى كانت ترفض سلطة الأساقفة ممن كانوا يعتبرونهم مهرولين لمهادنة القضاة الوثنيين فى فترات الاضطهاد تحت نير روما الاستعمارية. كان الدوناتيون يتهمون أى مسيحى يطيع أمرًا بتسليم كتابه المقدس لحرقه بالخيانة. وبذلك فإن الدوناتيين ومؤلف سفر الرؤيا كانوا أقرباء بالروح، فكان كلاهما راديكاليين مسيحيين يستبعدون أية مهادنة مع روما الوثنية، ويبغضون أى مسيحى من إخوانهم يتعاون مع السلطات الرومانية.

أما فيما يتعلق بقراءة سفر الرؤيا، فكان تايكونيوس يتخذ موقفًا منضبطًا وعاقلاً «أعتقه من إحراج التأويل الحرفى» حسب قول پولا فريدريكسن(٦٦). لكنه آل إلى رجل كانت مؤهلاته المسيحية فى وضع أفضل يمكنه من السمو بالقراءة «الروحية» لسفر الرؤيا إلى مرتبة مبدأ كنسى، وهو أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) أسقف هيبو بإقليم إفريقيا الرومانى، وربما كان أرقى علماء اللاهوت مكانة فى الكنيسة الأولى. فكان يحث قراء سفر الرؤيا وسامعيه على النظر إلى المعركة بين الرب والشيطان والتى يصورها السفر بصورة متقدة كمجاز لـ «الصراع الأخلاقى داخل كل إنسان وفى الكنيسة بعامة»، وكان يؤكد أن كل من يفعل غير ذلك فهو ينصاع «لأوهام هزلية»(٦٧).

فى «مدينة الرب ـ City Of God» يعترف أوغسطين الذى يشتهر بسرعته فى الاعتراف بفشله بأنه هو أيضًا أُغوى ذات مرة بالدخول فيما يسميه قراءة «حسية» لسفر الرؤيا[٦٨]. أى أنه كان مستعدًا لاعتناق الفكرة المثيرة التى ترى أن المسيحيين العاديين سيرون يسوع المسيح يهبط إن عاجلاً أو آجلاً من السماء فوق سحابة، ويحكم كملك على الأرض لألف سنة. إلا أن أوغسطين يعلن أنه أدرك فيما بعد خطأه وأخذ يدعو إخوانه المسيحيين إلى ما أدرك. بل إنه يسخر من الاعتقاد الشعبى بأن القديسين المبعثين سيسمح لهم بمواصلة متعهم الحسية فى حقبة العد التنازلى الألفية نحو الدمار النهائى للعالم.

وبناء على بضعة أسطر سقيمة فى متن سفر الرؤيا تصف حكم المسيح والقديسين لألف سنة، رسم أصحاب الفكر الحسى صورة مفصلة للفردوس الأرضى الذى لا يشبه شيئًا فى السفر نفسه أو فى غيره من النصوص المقدسة المسيحية. فكانوا يؤكدون، مثلاً، أن الموتى سيبعثون فى أجساد صحيحة لا عيب فيها فى سن تقارب سن المسيح وقت صلبه، أى «فى العقد الرابع من العمر» حسب قول پولا فريدريكسن[٦٩]. فالبدناء سيوهبون أجسادًا أنحف والمبتورة أطرافهم سيستردون أذرعهم وأرجلهم. والألفية ستشبه حكايات الجن حسب قول إيرينايوس الذى يزعم أن لديه معرفة بالأسرار الإلهية التى بشر بها يوحنا ولكنه لم يدونها فى سفر الرؤيا.

يتخيل فى «ضد البدع ـ Against Heresies» قائلاً: «ستأتى أيام تنمو فيها الكروم وبكل منها عشرة آلاف فرع، بكل فرع عشرة آلاف غصن، بكل غصن عشرة آلاف برعمة، بكل برعمة عشرة آلاف عنقود، بكل عنقود عشرة آلاف عنبة، وكلما أمسك أى من القديسين عنقودًا بكى عنقود آخر قائلاً: أنا أفضل منه، خذنى أنا»[٧٠].

ليس من الغريب على عامة الناس ممن يكافحون يومًا بيوم ليحصلوا على قوت يومهم ويعيشون فى خوف دائم من الجوع أن يتخيلوا الجنة مكانًا به وفرة من الطعام. إلا أن أوغسطين يعتبر هذه الأوهام ساذجة وطفولية، ويسخر صراحة من فكرة أن القديسين المبعثين سيقضون ألف سنة يلتهمون «ولائم حسية رعناء بها من الطعام والشراب الكثير، ما يكسر قيود الاعتدال بل قيود الصدقية أيضًا»[٧١].

ويؤكد أوغسطين أن الألفية ــ كما ورد وصفها بسفر الرؤيا ــ تشير إلى فردوس سماوى لا أرضى، فيقول: «مباهج القديسين فى ذلك السبت ستكون روحية»(٧٢). وعلى عكس التخيلات المحمومة لأناس كمونتانوس يستهزئ بفكرة أن أورشليم [القدس] السماوية سيراها البشر رأى العين هنا والآن. أما أوغسطين نفسه فيعتبر أورشليم [القدس] الجديدة كما وصفها سفر الرؤيا رمزًا «لمجد ممتد وجديد لا يترك للقديم مكانًا يبقى فيه»، وهى ظاهرة تدَّخر إلى أن يفنى العالم نفسه(٧٣). ولن يشهد أحد حكم المسيح الذى يدوم ألف سنة بأعين فانية؛ لأن المملكة الألفية رمز آخر فى رأى أوغسطين. يقول أوغسطين: «الكنيسة مملكة المسيح»(٧٤).

بل إن أوغسطين يؤثر أن يرى كافة التفاصيل المخيفة فى رؤى سفر الرؤيا سلسلة من المجازات المفصلة لحقيقة إلهية لا توصف لدرجة يضطر معها يوحنا لتلخيصها فى كلمات مجردة وأعداد وصور؛ لأن العقل البشرى العادى ما كان ليدركها بغير ذلك. ويحدد يوحنا حكم المسيح بألف سنة لا بمقياس الزمن الحرفى فى رأى أوغسطين، بل «بما يقابل فترة حياة هذا العالم». فالألف فى رأى أوغسطين «رقم الكمال». وحين يصف يوحنا الشيطان وكيف سيصفد بالأغلال ويلقَى به فى هاوية فى أثناء فترة حكم المسيح التى تدوم ألف سنة، فإن أوغسطين يفهم «الهاوية» بمعنى «الكثرة التى لا حصر لها من الأشرار ممن امتلأت قلوبهم بالحقد على كنيسة الرب»(٧٥).

ولا يرضى أوغسطين بالتسليم بأن المعركة الفاصلة بين الرب والشيطان ــ كما ورد وصفها بوضوح فى سفر الرؤيا ــ يمكن إدراكها فى الرزايا التى كانت تلم بروما حتى وهو يكتب. وذهب بعض معاصريه مثلاً إلى أن يوحنا حين يرى رؤى عن جيوش الشيطان وهى تخوض الحرب مع جيوش الرب فهو يتنبأ بغزو تتعرض له الإمبراطورية الرومانية من قبل شعوب «همجية» عدة، منها القوطيون والمورسكيون ممن يسمون «جيتاى» و«ماسينجيتاى» فى بعض المصادر القديمة. إلا أن أوغسطين يؤكد أن يوحنا لا يتحدث إلا مجازًا عن أعداء الكنيسة أينما كانوا على وجه الأرض. يقول أوغسطين: «فالأمتان اللتان يسميهما جوج وماجوج لا ينبغى فهمهما على أنهما أمتان من الهمج

فى بقعة ما من العالم، سواء الـ «جيتاى» والـ «ماسينجيتاى» كما يستنتج البعض من الأحرف الأولى، أو أمتان أجنبيتان أخريان خارج حكم الرومان»[٧٦].

وفوق هذا وذاك يتخذ أوغسطين موقفًا يسميه أحد الباحثين المحدثين «لا أدرية ثورية» ويعتبره باحث آخر «مبدأ الشك الغيبى»[٧٧]. ويؤكد أوغسطين فى تقى على الحقيقة الباطنية للرواية الكتابية المقدسة عن آخر الزمان، ولكنه يصر على أن «الطريقة التى سيحدث بها ذلك ليس بوسعنا الآن إلا أن نتكهن بها»، ولن ندركها إلا حين تحدث»[٧٨]. وبما أن يسوع كان قد نبه المسيحيين الأتقياء جميعًا من قبل ألا علم لأحد بموعد النهاية فإن سفر الرؤيا فى رأى أوغسطين لا يجب الرجوع إليه إلا لتعاليمه «الروحية» لا كمصدر لفتن الغيب.

اعتنقت السلطات الكنسية قراءة أوغسطين المقيدة والمحدودة لسفر الرؤيا وطبقتها، وبذلك أسهمت فى إخماد أية مضاربات حول تفاصيل «المجىء الثانى». يقول المؤرخ روبرت لرنر: «قطب أوغسطين جبينه لأنصار الألفية من المسيحيين ودفعهم للحذر فى كلماتهم». وأخمدت الكنيسة الحدس الرؤيوى بصورة فعالة حتى أنه فى الفترة من سنة ٤٠٠ إلى سنة ١٠٠٠ «لم يظهر أى منتَج مكتوب باقٍ يحوى خيالاً ألفيًّا غربيًّا مستقلاًّ»[٧٩]. أما الأدعياء ممن تجرءوا وأعلنوا موعدًا لنهاية العالم كعرافى الشؤم الذين أعلنوا بكل ثقة أن «المجىء الثانى» سيحدث فى سنة ٥٠٠ ميلادية فاعتبرهم المسيحيون الأكثر حذرًا «معتوهين ومجانين»[٨٠]. تقول پولا فردريكسن: «كان البرهان العملى الذى أثبت هذا الرأى هو مجرد مرور الزمن الذى استمر ولم يتوقف»[٨١].

إلا أن موقف أوغسطين المتشدد والصارم من سفر الرؤيا لم يفلح تمامًا فى إطفاء النيران التى قصد النص إضرامها فى قلوب وعقول قرائه وسامعيه. فسحر بيان السفر لا يقاوم كما قصد يوحنا بالتأكيد. فكان سفر الرؤيا بالنسبة لمن اضطروا للتعامل مع ضغوط الحياة اليومية فى عالم العصور الوسطى يمثل الوعد بأن الوباء والجوع والمرض سيعقبه الانتقام من الأعداء على الأرض وثواب الحياة الأبدية فى مملكة سماوية، وليس فى يوم من الأيام، بل قريبًا.

من السهل للمؤمن الحق أن يعلل عدم انتهاء العالم فى موعده دون رفض سفر الرؤيا باعتباره مجرد مجاز أو مجموعة نبوءات فاشلة. وتقوم الطريقة الأخرى لقراءة السفر على الاقتناع بأن الأسرار الإلهية مشفرة فى المتن، إلا أن قراء السفر أخفقوا حتى الآن فى إدراكها. فالتراث الرؤيوى قائم على فكرة مثيرة فحواها أن المعانى الحقيقية للسفر مخفية فى مشهد صريح وأن «الذِّهْنُ الَّذِى لَهُ حِكْمَةٌ» حسب قول يوحنا سيفطن إلى الأسرار الإلهية ويدركها(٨٢).

إذن كان أنصار حرفية الكتاب المقدس فى العصور الوسطى يصرون كنظرائهم المحدثين على قراءة سفر الرؤيا كنبوءة إلهية، وواصلوا جهودهم الحثيثة لحل شفراته. وأفضل مثال آنذاك والآن هو محاولة تحديد هوية الشرير الذى يوصف فى السفر بـ«الوحش». ففى القرن الثالث، أعلن أسقف رومانى يدعى هيبوليتوس (١٧٠ ـ ٢٣٥م) أن «وحش» الرؤيا هو إبليس الذى يرد ذكره فى مواضع أخرى بالعهد الجديد فى الرسائل المنسوبة ليوحنا الرسول: «أَيُّهَا الأَوْلاَدُ هِيَ السَّاعَةُ الأَخِيرَةُ وَكَمَا سَمِعْتُمْ أَنَّ ضِدَّ الْمَسِيحِ يَأْتِى قَدْ صَارَ الآنَ أَضْدَادٌ لِلْمَسِيحِ كَثِيرُونَ مِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّهَا السَّاعَةُ الأَخِيرَةُ»(٨٣)، وهكذا بدأ التراث القديم الباقى للفعل الذى حذر أوغسطين المسيحيين الأتقياء ألا يقدموا عليه، أى البحث عن أناس وأحداث بعينها فى عالم الواقع ومطابقتهم على شخوص سفر الرؤيا وأحداثه.

والمهمة مفزعة لأن سفر الرؤيا يوحى كرسالتى يوحنا الرسول بأنه سيكون هناك أكثر من مرشح للقب عدو المسيح. بل إن مؤلف سفر الرؤيا طلع بمجموعة كاملة من الحكايات الأخلاقية عن مخلوقات شيطانية. فيبدأ بالتنين الأحمر وهو مخلوق يصفه صراحةً بأنه «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ الَّذِى يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ»(٨٤). إلا أنه يستحضر أيضًا «وحشين» آخرين، أحدهما وحش ذو سبعة رءوس يخرج من البحر، والآخر ذو قرنين يخرج زاحفًا من بطن الأرض، وكلاهما من أعوان إبليس. الوحش الأول «أَعْطَاهُ التِّنِّينُ قُدْرَتَهُ وَعَرْشَهُ وَسُلْطَانًا عَظِيمًا»، والوحش الآخر يجبر البشرية على السجود للوحش الأول(٨٥).

ظل هذا الغموض وهذا التعقيد يجذبان انتباه قراء سفر الرؤيا وسامعيه ويلهبان خيالهم طوال الألفى سنة الماضية. وهناك إجابة بسيطة تفرض نفسها عندما يرد سفر الرؤيا لسياقه التاريخى الذى أنشئ فيه أصلاً. يتفق معظم الباحثين المحدثين على أن يوحنا يرمز بالوحش الذى يخرج من البحر إلى روما الاستعمارية ، وكل من رءوسه السبعة تمثل أحد أباطرة الرومان. ويرمز بالوحش الذى يطلع من بطن الأرض إلى الأعيان الإقليميين بمدن آسيا الصغرى السبع الذين أثارت محاكاتهم أسيادهم الرومان اشمئزاز المؤلف. وسعى بعض من أقدم قراء سفر الرؤيا كالباحثين الذين جاءوا بعده بمدة طويلة للربط بين « الوحش » وأحد أباطرة الرومان القدماء أو غيره.

وأشهر دليل على هوية وحش الرؤيا كان دومًا الشفرة العددية المتمثلة فى الرقم ٦٦٦ : « هُنَا الْحِكْمَةُ ! مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسِبْ عَدَدَ الْوَحْشِ فَإِنَّهُ عَدَدُ إِنْسَانٍ وَعَدَدُهُ : سِتُّ مِئَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ »(٨٦). ومفتاح الشفرة كما رأينا هو القيمة العددية للأحرف فى الأبجديات العبرية واليونانية واللاتينية. فبترجمة الأحرف فى أحد الأسماء إلى سلسلة من الأعداد يمكن الخروج بـ « عدد الإنسان » ، أى القيمة العددية لأحرف اسمه.

ونيرون الإمبراطور الرومانى فى القرن الأول الذى صورته المصادر اليهودية والمسيحية والوثنية على السواء وحشًا كان دائمًا من المرشحين المرجحين ؛ لأن القيمة العددية للأحرف العبرية التى تقابل « قيصر نيرون » هى فى الحقيقة ٦٦٦. ووفاة نيرون نتيجة انتحاره فى سنة ٦٨ ميلادية لم تمنع بعض قراء سفر الرؤيا من اعتباره عدو المسيح الذى لم يظهر بعد. وعلى كلٍّ فيوحنا يقول إن الوحش « كَانَ وَلَيْسَ الآنَ وَهُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَصْعَدَ مِنَ الْهَاوِيَةِ » وهو ما فسره البعض بمعنى أن نيرون عاش ومات وسيبعث من الموت ليحكم مرة أخرى فى آخر الزمان(٨٧). والحقيقة أن فكرة بعث نيرون تفسر سطرًا يلفه الغموض بعمق فى السفر عن الوحش ذى السبعة رءوس الذى يخرج من البحر. يقول يوحنا : « وَاحِدًا مِنْ رُءُوسِهِ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ لِلْمَوْتِ وَجُرْحُهُ الْمُمِيتُ قَدْ شُفِيَ وَتَعَجَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ وَرَاءَ الْوَحْشِ »(٨٨).

وربما كان يوحنا الذى يقتبس من المصادر الوثنية بحرية تامة استلهم حكاية كانت

تروى عن نيرون فى روما القديمة. فنيرون ـ حسب شائعة ارتقت فيما بعد إلى مرتبة الأسطورة ـ لم يمت بجرح سكين أصاب به نفسه إبان فتنة نشبت فى أواخر عهده، بل لجأ الإمبراطور الجريح إلى البارثيين أعداء روما القديمة وتم الإبقاء على حياته بمعجزة إلى يومٍ يعود فيه ليحكم روما من جديد. وتحولت الحكاية إلى نبوءة مقدسة بالبعث والعودة فى إحدى «نبوءات المتنبئين». فيتنبأ العراف قاصدًا نيرون بالإشارة إلى اعتقاده بأنه قاتل أمه قائلاً: «فى أواخر الزمان سيأتى من أواخر الأرض قاتل أمه، وسيعطَى القوة كلها وسيستعيد ما هلك دونه»(٨٩).

وهكذا فربما وظف يوحنا الأسطورة الوثنية عن «نيرون المبعوث ـ Nero redivivus» كرؤيا لآخر الزمان. لكن نيرون ليس الشخصية التاريخية الوحيدة التى سجلها على صفحات سفر الرؤيا قراؤه المبدعون من ذوى الخيال الخصب. بل إن طاقم شخصيات سفر الرؤيا أسندت إليهم مجموعة عجيبة من الأدوار، وكل جيل يفرز مرشحين جددًا للقب عدو المسيح. فصار وحش الرؤيا رجلاً لكل العصور.

حتى حين كان أوغسطين يدعو إلى قراءة سفر الرؤيا روحيًّا، مثلاً، كان بعض زملائه من رجال الدين يخيفون العقلاء من رعيتهم باستحضار الوحوش والأشرار الذين يملئون صفحاته إلى الحاضر. فكان مارتن تورس (٣١٦ ـ ٣٩٧م) وهو صاحب رؤى ظن أنه رأى ذات مرة إبليس بعينيه مقتنعًا بأن «وحش» الرؤيا حى يرزق فى مكان ما فى العالم وأن سليل إبليس البشرى موجود فى رحم أم تجهل حقيقة جنينها ومقدر له أن «يتولى الحكم ما أن يبلغ السن المناسبة»(٩٠). وقام أحد أتباع مارتن ـ وهو رجل يدعى سولبيسيوس ـ بنشر الرسالة المخيفة نفسها بعد أن توفى مارتن نفسه واختفى. بل إنه يتنبأ بحدوث هذا الجزء الأرعن من النبوءة فى غضون ألفية ونصف الألفية.

يقول سولبيسيوس فى عمل ظهر أول مرة فى مطلع القرن الخامس: «الآن هذه السنة الثامنة منذ أن سمعنا هذه الكلمات من فمه. ولنا الآن أن نتوقع قرب حدوث ما نخشى وقوعه فى المستقبل»(٩١).

كانت علامات آخر الزمان يراها فى كل مكان من كانوا يبحثون عنها فى القرن

الخامس. فالبرابرة على بوابات روما ممن تم تعميد كثرة منهم على النصرانية حين ولدوا كانوا يعتبرون جيوش الشيطان الذى كان ظهوره من إرهاصات «المجىء الثانى». وعندما حاصر ألاريك والقوطيون الغربيون العاصمة الاستعمارية فى سنة ٤١٠م أعلن أحد الوعاظ المسيحيين قائلاً: «انظروا، مرت السنون من عهد آدم، والآن جاء يوم الحساب»[٩٢]. واعتُبرت الزلازل التى ضربت فلسطين وكسوف الشمس الذى سجل فى التاسع عشر من يوليو ٤١٨م تحقيقًا لنبوءات سفر الرؤيا: «وَنَظَرْتُ لَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ السَّادِسَ وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمِسْحٍ مِنْ شَعْرٍ وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ»[٩٣].

بل كانت هناك أمثلة أكثر تطرفًا على «الأوهام الهزلية» التى سخر منها أوغسطين. فهناك شاب فى إسپانيا أصيب بالهلع الرؤيوى ـ أو بالأحرى استغل من أصيبوا بهذا الهلع ـ أعلن عن نفسه مدعيًا أنه يوحنا المعمدان، ورجل آخر بالأقاليم الشرقية من الإمبراطورية الرومانية ادعى أنه إيليا مستحضرًا فقرة بسفر الرؤيا تتنبأ بمجىء «الشاهدين» اللذين سيبشران بالمسيح. وهناك كاتب أخبار مسيحى بالحقبة نفسها زعم أن القيمة العددية لاسم الملك الوندالى «جينسيريك» الذى تولى عرش قرطاج بشمالى إفريقيا ـ هى الرقم ٦٦٦ الشيطانى الرهيب.

ربما كانت الإمبراطورية الرومانية فى طور اضمحلالها وسقوطها فى سنوات القرن الخامس الصاخبة، لكن العالم لم ينته وظلت نبوءات سفر الرؤيا دون أن تتحقق. ومع ذلك واصل قراء سفر الرؤيا البحث عن علامات وآيات فى العالم من حولهم.

وما إن بدأ البحث المضنى عن عدو المسيح من لحم ودم فإنه لم ينته؛ لأن العالم نفسه لم ينته. وكان نيرون مرشحًا له جاذبيته لحيازة لقب عدو المسيح بين قراء سفر الرؤيا وسامعيه، ممن ذكَّروا بأول اضطهاد للمسيحيين فى روما، لكن محمدًا(*) كان اختيارًا أرجح؛ نظرًا لأنه عاش فى العصور الوسطى. وإبان الحملات الصليبية اعتُبر صلاح الدين عدو المسيح، وحين غزا الأتراك القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣م اعتُبر

(*) يقصد النبى محمدًا ﷺ.

سلطان الإمبراطورية العثمانية عدو المسيح فى عصره. وفى القرن السادس عشر اعتُبر كل من مارتن لوثر وبابا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الآخر عدو المسيح. وفى أية مرحلة بين أواخر العصور القديمة وعصرنا الراهن، كان المشتبه بهم المعتادون فى البحث عن عدو المسيح يعكسون هواجس عصرهم.

كان تخمين من يشتبه بأنهم عدو المسيح تسلية شعبية بين بعض قراء سفر الرؤيا. بل ربما بذل جهد أكبر لحساب موعد انتهاء العالم بدراسة الأعداد الغامضة الكامنة فى سفر الرؤيا. وكان يسوع واضحًا فى تحريم مثل هذه التكهنات، ويدعو أوغسطين المسيحيين الأتقياء ممن يجدون فى أنفسهم ميلا لعد السنين المتبقية إلى يوم الحساب أن «يرخوا أصابعهم ويعطوها قليلا من الراحة»، إلا أن الكلمات الصريحة فى الأناجيل وعلى ألسنة آباء الكنيسة لم تردع هواة الأعداد الغامضة[٩٤].

وككثير غيرها فى التراث الرؤيوى تبدأ لعبة الأعداد فى سفر دانيال، حيث يوهب النبى رؤيا عن محنة بنى إسرائيل الأخيرة. فيقول أحد مبشريه السماويين: «إِنَّهُ إِلَى زَمَانٍ وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفٍ. فَإِذَا تَمَّ تَفْرِيقُ أَيْدِى الشَّعْبِ الْمُقَدَّسِ تَتِمُّ كُلُّ هَذِهِ»[٩٥]. وباستقراء فقرات أخرى أقل غموضًا فى سفر دانيال، حيث يشير النبى ـ كما رأينا ـ إلى فترة ألف ومائتين وتسعين يومًا أو ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين يومًا باعتبارها ساعة العد التنازلى للخلاص الأخير، وهى فترة تساوى حوالى ثلاث سنوات ونصف السنة، قرر بعض قراء سفر دانيال الأوائل أن «زمان» يساوى سنة و«زمانين» يساويان سنتين. وهكذا اعتبروا أن عبارة «زَمَانٍ وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفٍ» تعنى ثلاث سنوات ونصف السنة.

والفترة الزمنية نفسها تمامًا استحضرها سفر الرؤيا بصورة مفرطة. فالمرأة المتسربلة بالشمس، مثلاً، تفر إلى الصحراء هربًا من التنين الأحمر، وستظل هناك حسب قول يوحنا «زَمَانًا وَزَمَانَيْنِ وَنِصْفَ زَمَانٍ». وفى موضع آخر من سفر الرؤيا يحدد يوحنا أن إقامتها ستدوم ألفًا ومائتين وستين يومًا. ويتنبأ بأن الأغيار سيطئون مدينة أورشليم [القدس] المقدسة اثنين وأربعين شهرًا، وأن الشاهدين سيبشرون لألف ومائتين وستين يومًا. ويتنبأ يوحنا فيما بعد بأن «وحش البحر» سيحكم الأرض لاثنين وأربعين

شهرًا[٩٦]. وهذه الفترات كلها تساوى ثلاث سنوات ونصف السنة إذا حسبنا على أساس أن الشهر ثلاثون يومًا. وليس من قبيل المصادفة أن ثلاثة ونصف هى نصف رقم يوحنا المفضل، أى الرقم سبعة الإلهى.

ووفقًا لأحد الأقوال المأثورة التى تشبث بها هواة تحديد التواريخ الرؤيوية، فإن يوحنا يقصد البوح بأن نهاية العالم ستحل بعد ثلاث سنوات ونصف السنة تمامًا من ظهور عدو المسيح. وهناك أسقف من شمالى إفريقيا يدعى إيفوديوس الأوزالى، مثلاً، كان يؤكد لجمهوره فى سنة ٤١٢ أن الشيطان نفسه سيحكم العالم باسم عدو المسيح قبل ثلاث سنوات ونصف السنة تمامًا من عودة يسوع المسيح إلى الأرض منتصرًا حسب نبوءة سفر الرؤيا. وفترة السنوات الثلاث ونصف السنة نفسها شاعت فى أواخر العصور القديمة وفى العصور الوسطى بوصفها العد التنازلى لآخر الأزمان.

وما إن اقتنعوا بأن مجىء عدو المسيح هو الحدث الذى يطلق العد التنازلى لنهاية العالم، حتى تنبه المتنبئون المسيحيون ونشطوا للبحث عن الأرجح من بين الملوك والغزاة فى عالمهم. وسفر الرؤيا يضم نبوءات خير ونبوءات شؤم كما رأينا، وفيما يلى مثال آخر: سيأتى عدو المسيح بالقهر والاضطهاد بكل تأكيد، ولكنه فى الوقت نفسه أصدق علامة على قرب ظهور يسوع المسيح. وعلى أى ففترة ثلاث سنوات ونصف السنة ليست طويلة فى انتظار الجوائز التى وعد بها سفر الرؤيا من مجىء ثانٍ ليسوع المسيح والمملكة الألفية والهزيمة النهائية للشيطان ويوم الحساب، ولقلة سعيدة حياة أبدية فى السماء الجديدة والأرض الجديدة. والمؤمنون الحقيقيون الرؤيويون يرقبون ظهور عدو المسيح منذ ذلك الحين.

ولكن فيما يتعلق بالتوقيت أيضًا فالخيال الرؤيوى لا يرضى بالأفكار البسيطة، وهناك نظريات أكثر تفصيلاً ظهرت فى أوائل العصور الوسطى لحساب آخر الأزمان. وتقوم أكثر النظريات ثباتًا على مقولة قديمة تقول إن تاريخ العالم من بدايته لنهايته يمكن تقسيمه إلى سبع فترات كل منها ألف سنة. وبذرة الفكرة يمكن العثور عليها فى سطر شارد من النصوص اليهودية المقدسة ـ حيث يقول ناظم المزامير للرب فى الكتاب

المقدس العبرى : «لأَنَّ أَلْفَ سَنَةٍ فِى عَيْنَيْكَ مِثْلُ يَوْمِ أَمْسِ» ـ إلا أنها نمت وأزهرت فى دفيئة التراث الرؤيوى»[٩٧].

التشبيه نفسه أعيدت صياغته فى النصوص المقدسة المسيحية بطريقة توحى بمعنى أكثر حرفية. فيقول مؤلف رِسَالَةِ بُطْرُسَ الرَّسُول الثَّانِيَة : «يَوْم وَاحِد عِنْدَ الرَّبِّ كَأَلْفِ سَنَةٍ وَأَلْفَ سَنَةٍ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ»[٩٨]. وتوسع قراء سفر الرؤيا فى هذه الأسطر السقيمة من النص المقدس بتصور أن أيام الخلق السبعة بسفر التكوين يقصد بها التنبؤ بما يعرف بـ«أسبوع العالم» أى سبع حقب من التاريخ مدة كل حقبة ألف سنة. و«اليوم» السابع والأخير من أسبوع الحقب الكونية ـ ما يعرف بـ «حقبة السبت»ـ سيكون حكم المسيح لألف سنة على الأرض حسب نبوءة سفر الرؤيا.

واستُغلت حقب التاريخ السبع لحل بعض الألغاز المحيرة فى نص الرؤيا. فيفسر يوحنا، مثلاً، أن المقصود برءوس وحش البحر السبعة أن ترمز لسبعة ملوك، ولكنه لا يحدد أى ملوك. وتدارس بعض القراء الأوائل «القياصرة الاثنا عشر» للمؤرخ القديم سويتونيوس على أمل تحديد أسماء للرءوس السبعة. فهناك فريق يبدأ بيوليوس قيصر ويُحصى الأباطرة السبعة بترتيب توليهم العرش، وفريق آخر يسقط الأباطرة الأكثر غموضًا كأوتو وفيتيليوس ويقتصرون على عد أشهر أباطرة الرومان أو أسوأهم سمعة. إلا أن علماء اللاهوت بأواخر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى يؤثرون اعتبار وحش سفر الرؤيا ذى الرءوس السبعة رمزًا لحقب التاريخ السبع وافتتنوا بفكرة أنهم يعيشون الحقبة السابعة والأخيرة.

إلا أن هذه النظريات كلها وسفر الرؤيا نفسه ليس فيها ما يوحى بأن العالم سينتهى فى سنة تنتهى بثلاثة أصفار. فالدلالة الوحيدة للألفية فى سفر الرؤيا هى مدة مملكة المسيح الأرضية ومدة حبس الشيطان فى الهاوية. ويبدو أن يوحنا يوحى بأن الألفية قد تبدأ فى أية سنة فى التقويم ؛ لذا فهناك راهب إسبانى يدعى بيتوس الليبانى كتب فى حوالى سنة ٧٧٥م وتنبأ بكل ثقة بأن «حقبة السبت» ستبدأ فى وقت ما من سنة ٨٠٠م، ولكنه يقلل من أهمية الموعد الدقيق. يقول بيتوس فى شرحه ذى الألف

صفحة لسفر الرؤيا : «كل كاثوليكى يجب أن يتأمل وينتظر ويخاف، وأن يعتبر هذه السنين الخمس والعشرين كأنها لم تكن سوى ساعة، وأن يبكى ليل نهار فى الخيش والرماد لدماره ودمار العالم، ولكنه يجب ألا يحصى الزمن»(٩٩).

كان الأهم من عدد الأصفار فى أية سنة فى التقويم العلامات والآيات التى يحذر يوحنا قراءه من توقعها لدى اقتراب آخر الأزمان. ففض الأختام السبعة وصب القوارير السبع ونفخ الأبواق السبعة يقال إنها تفيد معنى الأوبئة والأسقام والمجاعة والحروب والزلازل والكسوف وظواهر طبيعية أغرب. يقول يوحنا : «وَنَظَرْتُ لَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ السَّادِسَ وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمِسْحٍ مِنْ شَعْرٍ وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ، وَنُجُومُ السَّمَاءِ سَقَطَتْ إِلَى الأَرْضِ، وَالسَّمَاءُ انْفَلَقَتْ كَدَرْجٍ مُلْتَفٍّ وَكُلُّ جَبَلٍ وَجَزِيرَةٍ تَزَحْزَحَا مِنْ مَوْضِعِهِمَا». إذن فأى شىء يختلف قليلاً عن المعتاد ـ عجل يولد بعيب خلقى، هزة زلزالية، مذنب فى السماء ـ كان يبدو فى نظر المسيحيين المتنبهين فى العصور الوسطى من علامات حلول آخر الأزمان. وهناك نقش من پواتييه فى القرن السابع تقول كلماته : «الألف والياء، البداية والنهاية، كل شىء يزداد سوءًا كل يوم؛ لأن النهاية اقتربت»(١٠٠).

حتى أتفه المشاهد فى أوروپا الوسيطة كانت مشحونة بالمعانى الرؤيوية عند المسيحيين الذين عاشوا ينتظرون آخر الأزمان. وبدافع من سفر الرؤيا لترقب علامات المسيح الدجال ركزوا أبصارهم على من خصهم يوحنا ببغضه بوصفهم «مَجمع الشيطان». فأصبح لليهود دور حاسم فى الدراما الرؤيوية التى سيطرت على الخيال المسيحى فى العصور الوسطى.

وهناك مفارقة قاتمة وخطيرة أخرى. إذ بدأت المسيحية كطائفة داخل اليهودية. فيسوع وتلاميذه الاثنا عشر والمسيحيون الأوائل جميعًا ولدوا يهودًا بالطبع، ومؤلف سفر الرؤيا أيضًا يفاخر بأنه يهودى بحق. لكن سفر الرؤيا يبين بجلاء الخط اللاهوتى الفارق الذى افترقت عنده الديانتان فى صدر تاريخ الكنيسة المسيحية. فالمسيحيون الأوائل كانوا يهودًا اعتبروا يسوع الناصرى المسيح، ولكنهم لم يرضوا بالانفصال عن

إخوانهم اليهود ممن أبوا أن يتبعوهم فيما ذهبوا إليه. واقتداءً بسفر الرؤيا فإن اليهود لم يكونوا يدانون وحسب، بل كانت تضفَى عليهم سمات شيطانية أيضًا.

كان الأسقف هيبوليتوس الذى عاش فى القرن الثالث من أوائل الدعاة المسيحيين ممن اعتبروا وحش الرؤيا شيطانيًّا ويهوديًّا، وأكد أن عدو المسيح سيولد من نسل سبط دان التوراتى، وسيجند جيشه الشيطانى من طوائف اليهود فى أرجاء العالم. وبربط عدو المسيح بسبط دان يقدم هيبوليتوس حلا غريبًا لأحد أكثر ألغاز سفر الرؤيا غموضًا. إذ يقدم يوحنا قائمة باثنى عشر سبطا من بنى إسرائيل القدماء، ولكنه يحذف سبط دان التوراتى عامدًا. وربما استبعد يوحنا دان من القائمة لأنه تلقى وحيًا خفيًّا بأن عدو المسيح سيحمل فى عروقه دم ذلك السبط، أو هكذا اعتقد آباء الكنيسة الأولون.

وفى القرن الرابع، كان وصف عدو المسيح فى الدعاية الدينية أكثر تفصيلاً، وأكثر عداء للسامية تحديدًا. فكان مارتن التورسى، مثلاً، يحذر من أن عدو المسيح حين يظهر للعلن سيجلس على عرش مدينة أورشليم [القدس]، ويعيد بناء هيكل سليمان، ويفرض عادة الختان على مستوى كونى. وطبقًا لتفاصيل ماجنة أضيفت لصورة عدو المسيح فى الأساطير والتراث المسيحى ستحمل أمه فيه فى ماخور بابلى، فهو ابن إبليس وعاهرة يهودية، وسيختن فى أورشليم [القدس] حيث سيعلن أنه المسيح، وسيموت حين يحاول الصعود إلى السماء من فوق جبل الزيتون فيسقط فى أغوار الجحيم.

وسفر الرؤيا نفسه أكثر تقيدًا بالطبع. فبغض النظر عن إشارة يوحنا العابرة إلى «مجمع الشيطان» مهما بدا فيها من بغض لنا اليوم، فإن بقية النص يخلو تمامًا من معاداة السامية بصورة صريحة. بل إن يوحنا ـ كما رأينا ـ يعتبر نفسه يهوديًّا تقيًّا، وهو مرتبط بالتاريخ والطقوس والرمزية اليهودية ارتباطًا عميقًا. وفى اللحظة الوحيدة بسفر الرؤيا التى يصف يوحنا نفسه فيها بأنه مشارك فعلاً فى حدث رؤيوى، مثلاً، يتلقى عصا قياس ذهبية من أحد الملائكة ويؤمر بمسح أورشليم [القدس] السماوية بكافة تفاصيلها. ويتوقف يوحنا فى رسالته الدعائية المخيفة ليعلن بالتفصيل الدقيق أن طول المدينة المقدسة على كل من جوانبها الأربعة اثنا عشر ألف «غلوة» (أى ألف

وخمسمائة ميل)[١٠١]. هذا فى حين أن يسوع يعلن فى سفر يوحنا أن هيكل أورشليم [القدس] سيدمر ويحل محله «هَيْكَلُ جَسَدِهِ»[١٠٢].

وفوق هذا وذاك فإن يوحنا يخون جذوره اليهودية حين يتنبأ بحكم يسوع المسيح لألف سنة. بل إننا هنا تحديدًا نرى الفارق الجوهرى بين اليهودية والمسيحية فيما يتصل بفكرة المسيح. فالمخلِّص اليهودى يتم تخيله بشرًا من لحم ودم، يرسله الرب ليحقق الأمن والسيادة للشعب اليهودى هنا على الأرض، وهى حقبة ستستمر ما بين أربعين سنة وأربعمائة حسب بعض الكتابات الرؤيوية اليهودية. أما المسيح المسيحى فهو ابن الرب وسيحكم حكمًا أبديًّا فى السماء بعد أن يبلغ العالم نهايته. ويبدو أن يوحنا يريد الأمرين معًا فى سفر الرؤيا: فهو يتنبأ بأن يسوع سيحكم ملِكًا على الأرض فى أورشليم [القدس] بصورتها الجديدة لمدة ألف سنة بالتمام، ثم تستبدل بمملكة القديسين والشهداء الأرضية مملكة سماوية للأبد.

ويوحنا المؤلف الوحيد فى النصوص المقدسة المسيحية الذى يصف يسوع كملك أرضى يمكن قياس حكمه بالزمن الحقيقى. وهذا أحد الأسباب التى دعت بعض الباحثين لاعتبار سفر الرؤيا «شبه مسيحى بل غير مسيحى»[١٠٣]. والحقيقة أن تبنى يوحنا المفهوم المسيحانى اليهودى يقدم سلاحًا بلاغيًّا لعلماء اللاهوت المسيحيين من أمثال چيروم وأوغسطين ممن أكدوا على ضرورة قراءة سفر الرؤيا قراءة «روحية» لا «حسية». فليس هناك سوى اليهود يتصورون مملكة مسيحانية كتلك التى ورد وصفها بسفر الرؤيا، ولا بد للمسيحيين أن يقرءوا ويفهموا نص يوحنا رمزيا لا حرفيًّا: فحكم المسيح لألف سنة على الأرض ـ كما ورد فى الرؤيا ـ يمثل سلطة الكنيسة وليس تنبؤًا بأن يسوع سيهبط فعلاً من السماء ويرتقى عرشًا فى مدينة أورشليم [القدس].

يقول چيروم الذى يعتبر قراءة سفر الرؤيا قراءة حرفية خطأ لاهوتيًّا لا يقترفه إلا يهودى: «القديسون لن تكون لهم مملكة أرضية، بل مملكة سماوية، وبذلك يجب أن تتوقف حكاية الألف سنة». بل إن أبشع تهمة وأحط إهانة يمكن أن يوجهها لأى مسيحى يقترف الخطأ نفسه «أى فهم الرؤيا فهمًا حرفيًّا هى التهود»[١٠٤].

ولا يلبث موقف يوحنا المبهم وشديد التضارب من أصوله اليهودية حتى يزول أمام سيل معاداة السامية العرم الذى اجتاح الحضارة الغربية فى العصور الوسطى. وسيعيد قراء المستقبل اكتشاف الدقائق اللاهوتية فى ثنايا سفر الرؤيا وسيعتبرون أنفسهم حلفاء للشعب اليهودى، بل سيكون هناك ما يعرف بالصهاينة المسيحيين. ولكن طوال الألف سنة التالية، سيُزف اليهود جميعًا إلى عضوية «مَجْمَعُ الشَّيْطَان» وسيعمل سفر الرؤيا على الإيحاء بفظائع ترتكب ضدهم باسم «الأَسَدُ الَّذِى مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا أَصْلُ دَاوُدَ»(١٠٥).

من لوحات الفسيفساء الدقيقة التى تزدان بها إحدى كنائس العصور الوسطى بغرب أوروبا ما يكشف تفصيلة دقيقة ولكنها خطيرة عن دور سفر الرؤيا فى العالم المسيحى القديم. فأقدم أجزاء اللوحة يصور يسوع جالسًا بين تلاميذه الاثنى عشر، وهو مشهد مستعار من موتيفة منتدى الفلاسفة الوثنية. وفيما بعد، وبعد أن اعتنق قسطنطين المسيحية وتحولت الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية مسيحية، تم تزيين اللوحة برموز السلطة الإمبراطورية: فتحول المقعد الذى يجلس عليه يسوع إلى عرش محلى بالجواهر وأضيفت هالة ذهبية لتوحى بتاج ملكى. وفى الإحلال الثالث والأخير تم إدخال عناصر من أيقونات سفر الرؤيا المتميزة «المخلوقات الأربعة» التى تخدم الرب فى غرفة العرش الإلهى؛ مدينة أورشليم [القدس] السماوية؛ حمَل الرب وهو يبدو كأنه مذبوح، ومع ذلك يقف منتصبًا وفى فمه سيف(١٠٦).

وبتحليل لوحة الفسيفساء تأكد الباحثون من حقيقة غريبة عن سفر الرؤيا. فصور الرؤيا نادرًا ما استعملت فى الفن والعمارة المسيحيين قبل القرن الرابع. ثم فجأة بدأ ظهور حمل الرب الممسك بسيف وغيرها من رموز آخر الأزمان الأيقونية على التوابيت والنقوش العاجية والجداريات ولوحات الفسيفساء واللوحات التذكارية فى كافة أنحاء العالم المسيحى. وبدأ نقش حرفى «ألفا» و«أوميجا» (الألف والياء) اليونانيين اللذين يستعين بهما يوحنا للإيحاء بخلق العالم ودماره على التحف الفنية بدءًا من خواتم النساء الذهبية وانتهاءً بأطواق العبيد. وهكذا كانت طفرة الرمزية الرؤيوية فى الفنون والحرف المسيحية «مفاجئة وغزيرة» لدرجة أن وصف أحد الباحثين الظاهرة بأنها «غزو»: فبدا

كأن الرؤيا سيطرت فجأة على خيال رجال الدين والعوام على السواء فى كافة أرجاء العالم المسيحى، وأزاح مسيح سفر الرؤيا المنتقم مسيح الأناجيل البائس[١٠٧].

كان الغزو الرؤيوى واضحًا وباقيًا فى غرب أوروپا. لكن الظاهرة نفسها يمكن رؤيتها فى العالم المسيحى الشرقى، حيث لم يُستقبل سفر الرؤيا إلا متأخرًا وبرهبة خاصة. فهناك - على سبيل المثال - نص غريب بعنوان «رؤيا القديس يوحنا اللاهوتى» ظهر أول مرة فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى القرن الخامس يحكى عن لقاء سماوى بين الرب ومؤلف سفر الرؤيا ويصف الملامح الجسمانية «للوحش» الشيطانى تفصيلاً. فيروى ليوحنا أن «منظر وجهه كئيب، وشعره كرءوس السهام، وحاجباه أشعثان، وعينه اليمنى كنجمة الصبح لحظة طلوعها، واليسرى كعين الأسد. وعرض فمه ذراع وطول أسنانه شبر، وأصابعه كالمناجل وأثر قدمه بطول ذراعين وعلى جبينه عبارة: عدو المسيح»[١٠٨].

وتوقيت الغزو الرؤيوى كاشف للغاية. فربما قصد يوحنا بسفر الرؤيا أن يكون سلوانًا للمسيحيين المضطهدين فى عصره، إلا أن رمزية الرؤيا لم تبدأ فى الانتشار فى أرجاء أوروپا إلا حين كانت المسيحية ثائرة ومنتصرة. بل إن سفر الرؤيا حقق انتشاره المفاجئ والواسع بعد أن رفع الإمبراطور ثيودوسيوس المسيحية رسميًّا إلى مرتبة ديانة الدولة فى الإمبراطورية الرومانية فى سنة ٣٩١م بفترة قصيرة.

كما تزامن الغزو الرؤيوى مع تغير قوى طرأ على الفهم المسيحى للعالم. فآلية السلطة الرومانية التى كانت تستغل ضد المسيحيين - الشرطة والمحاكم وغرف التعذيب ومقاصل الإعدام - أصبحت الآن تحت إمرة السلطات المسيحية لاستغلالها ضد الأعداء بداخل الكنيسة وخارجها على السواء. وهكذا فالمسيح الذى تصوره الأناجيل ضحية التعذيب والإعدام، أصبح فجأة أقل ملاءمة للظروف الجديدة للكنيسة من مسيح سفر الرؤيا الذى يمتطى صهوة جواد حربى ويمتشق سيفا ويعتمر تاجًا.

وفى الوقت نفسه كانت الإمبراطورية الرومانية فى حالة اضمحلال بالطبع، وتمشى بخطى سريعة نحو سقوطها النهائى. فتفككت روما نفسها والأقاليم الغربية من الإمبراطورية إلى مجموعة فوضوية من الممالك «البربرية» بُعيد سقوط روما فى

سنة ٤١٠م، وكان الجزء الشرقى المتبقى معرضًا باستمرار لتهديد جيوش فارس الوثنية. وظهر وباء الطاعون ـ أو «الموت الأسود» الرهيب الذى سبق أن تمثل فى رمزية سفر الرؤيا ـ أول مرة فى القرن السادس، وبلغ درجة الوباء على مدار السنوات المائتين التالية. وفى القرن الثامن، كانت الأقاليم الرومانية السابقة فى إسپانيا وشمال إفريقيا والشام بما فيه مدينة أورشليم [القدس] نفسها سقطت بأيدى المسلمين.

مع ذلك قدم سفر الرؤيا نهجًا لفهم أعتى الكوارث واعتبارها نذر انتصار أكبر. وربما تجادل علماء اللاهوت حول ما إذا كان حكم المسيح لألف سنة ـ كما ورد وصفه فى سفر الرؤيا ـ نبوءة أم مجازًا، ولكن سواء أقرئ سفر الرؤيا «حسيًّا» أم «روحيًّا» فإن رسالته الواضحة هى أن العالم هالك إلى الأبد إن عاجلاً أو آجلاً، وأن أية نفس مسيحية يقضى يسوع المسيح بأنها تستحق ستحيا أبدًا فى مملكة سماوية. وحتى أوغسطين الذى تدنى لدرك أخذ ما ورد بسفر الرؤيا حرفيًّا، اقتنع بأن نهاية العالم قدر لا مفر منه. فيقر أوغسطين بأن «إيليا آتٍ واليهود سيؤمنون وعدو المسيح سيَضطهد والمسيح سيفصل بين الناس والموتى سيبعثون، وسيُفصل الأخيار عن الأشرار، والعالم سيُحرق ويُخلق من جديد. ونحن نؤمن بأن هذه الأشياء كلها ستحدث، أما كيف وبأى السبل ؟ فالإدراك البشرى لا يستطيع أن يدلنا، ولن نعرف إلا بتجربة الأحداث نفسها»(١٠٩).

وتذكرنا عبارة أوغسطين ــ «تجربة الأحداث نفسها» ــ بما دفع بعديد من المسيحيين لتجاهل تحذيراته من قراءة سفر الرؤيا كحقيقة حَرفية. فلمدة ألف سنة تقريبًا بدت الحياة اليومية على الأرض كأنها تشهد تحقق حتى أشد نبوءات الرؤيا رعبًا، وبدت نهاية العالم وشيكة فعلاً. ومع ذلك وعلى الجانب الأقصى من محنهم ـ الحروب وشائعات الحروب والمجاعات والأوبئة وكافة الرزايا التوراتية الأخرى التى يعد الرب بإنزالها بالبشرية المعذبة ـ لمح قراء سفر الرؤيا مشهد سماء جديدة وأرض جديدة وأورشليم [القدس] جديدة رصفت طرقاتها بالذهب.

وعلى الرغم من الارتياع الشديد والمشاهد المرعبة على صفحاته، فإن سفر الرؤيا

كان بعض القراء يرونه دائمًا قصة تنتهى بأسعد النهايات ؛ لذا فإن سفر الرؤيا يمكن أن يكون كالعقار المخدر ـ يقول أحد الملائكة ليوحنا وهو يحثه على أكل «السفر الصغير» بالمعنى الحرفى للكلمة «خُذْهُ وَكُلْهُ» ـ ولكنه يترك القارئ فى حالة من الخدر الصوفى[110]. وبما أن مشيئة الرب للعالم مكتوبة فعلاً على صفحات الكتابات المقدسة، ونظرًا لأن الرب وعد برفع القديسين والشهداء إلى الحياة الأبدية فى آخر الأزمان، فإن قراء سفر الرؤيا السذج يرضون بإغماض أعينهم عن العالم الخطير الذى يحيون فيه، ويحلمون بالمباهج الموعودة فى المملكة المسيحانية ويبتهلون أن يستيقظوا فى أورشليم [القدس] السماوية.

لكن هناك سبيلاً آخر لمعايشة سفر الرؤيا. فبعض الناس عبر العصور ـ كما سنرى ـ يرون فى السفر حافزًا يملؤهم بطاقة جياشة. فهم يقظون تمامًا ومتنبهون لأفعال إبليس، ويجدون أنفسهم مضطرين لعمل شىء للتعجيل بالانتصار الحاسم للرب. فمنهم من يتحرك للتبشير والتنبؤ، ومنهم من يندفع بحثًا عن العالم الجديد الذى وعد الرب أن يهبه للبشرية، ومنهم من يرضى بامتشاق «سَيْفٍ مَاضٍ ذى حَدَّيْنِ» اقتداءً بيسوع كما وصف فى سفر الرؤيا دون غيره من أسفار العهد الجديد[111].

❁ ❁ ❁